

دراسة ابن الأثير

تأليف

عبد القادر العبدى

للمعهد العالي للغة العربية من كليات الجامعة الأزهر

الطبعة الأولى

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

مطبعة الاعتماد بمصر

obeykandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد أعدل المشرعين ،
وأكمل المجتدين ، وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوا سبيله ، واهتدوا
بهديه ، فلم يحمدوا في دينهم على لفظ من الألفاظ ، ولم يهملوا جانب
الحكمة من التشريع ، فسايروا الزمن في الإصلاح ، وجعلوا الدين
يسرا لا عسرا ، فلم يضق بهم بعد اتساع الدولة ، ولم يصبهم منه حرج
في حياتهم الخاصة والعامة .

وبعد فهذه دراسات إسلامية في علوم مختلفة من الدين ، من
تفسير ، إلى توحيد ، إلى فقه ، إلى سيرة نبوية ، إلى غير هذا من
العلوم الإسلامية . تمتاز بالرأي المبتكر ، وترمى إلى إشاعة التجديد
في علوم الدين ، حتى تجارى في عصرنا غيرها من العلوم الحديثة ، وتؤدي
رسالتها في الإصلاح ، ولا ينظر إليها شبابنا كما ينظرون إلى كل قديم
رث ، فيعافوا النظر فيها ، ويتحولوا عن دراستها إلى دراسة العلوم
التي تأتيننا من أوربا وغيرها ، وتنقطع بهذا صلتهم بماضيهم ، وفي هذا
ما فيه من الخطر على دينهم ووطنهم .

وهذا هو الجهاد الذي أخذت به نفسي في حياتي ، وجعلته نصب
عيني في كل مؤلفاتي ، راجيا من الله التوفيق فيه ، والمثوبة عليه ،
وهو حسبي ونعم الوكيل ؟

obeykandi.com

في علم التفسير

الحضارات القديمة في القرآن

الحضارة البدواة في الإسلام :

ظهر الإسلام في أمة العرب بعد أن وصلت البدواة فيها إلى أبعد حدودها . فكانت بدواة قاسية جاهلة ، يشتد فيها النزاع بين الأفراد والقبائل ، ويتخذ فيها السلب والنهب وسيلة لكسب العيش ، فيأكل القوى الضعيف ، ويظهر الباطل على الحق .

وكان هناك حضارتان فاسدتان يحاوران هذه البدواة الغاشمة ، إحداهما حضارة الفُرس بالشرق ، والثانية حضارة الروم بالغرب ، وكان الفساد قد سرى فيهما حتى أنهكهما ، فلم يكونا أقل ضلالا من تلك البدواة العربية ، ولم يكن أهلها أقل شقاء من أهل تلك البادية . فكان من أهم أغراض الإسلام العمل على نحو تلك البدواة بين العرب ، وإقامة حضارة جديدة خالية من الفساد الذي وقعت فيه حضارة الفرس والروم ، لانتشر لواؤها في الخافقين ، وترتفع فيها أعلام العدل ، ويظهر فيها الحق على الباطل ، وتقوم فيها المساواة بين الشعوب والأفراد ، فلا يأكل القوى الضعيف ، ولا يظلم الغنى الفقير ، وبهذا يسود السلام بين الشعوب ، فيركنون إلى هذه الحضارة الصالحة العادلة ، ويكونون جميعا أمة واحدة لا يمتاز فيها شعب على شعب ، ولا يكون هناك فوارق بين أمة وأمة .

ولا غرو في أن يكون مثل هذا من أغراض الإسلام ، بل لا غرو في أن يكون هذا من أهم أغراضه ، لأنه يمتاز على غيره من الأديان بأنه لا يعمل للأخرة وحدها ، ولا يعنى بسعادة الناس فيها فقط ، بل يعمل للدنيا أيضا ، ويعنى بسعادة الناس فيها كما يعنى بسعادتهم

في الآخرة ، ليكونوا سعداء في دنياهم ، قبل ان يكونوا سعداء في آخرهم .

وقد صرح القرآن بذلك الغرض العظيم في بعض آياته ، فقال تعالى في الآية ٥٥ ، من سورة النور (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) .

وقد بين الله تعالى في آية أخرى ما تمتاز به الأمة الإسلامية في حضارتها الجديدة ، فذكر أن أهم ما تمتاز به أنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، كما قال تعالى في الآية ١١٠ ، من سورة آل عمران (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) والمعروف ما تستحسنه العقول من العدل ونحوه ، والمنكر ما تستقبحه العقول من الظلم ونحوه ، فهي أمة لا يستبد فيها الحكم ، ولا يستأثرون فيها بالأمر والنهي ، بل كل فرد فيها له حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فيكون الحكم فيها شركة بين الحاكم والمحكوم ، وهذا هو أرق أنواع الحكم ، وأجدره بتحقيق العدل بين الناس .

وقد جاء في القرآن كلام عن البداوة العربية وأهلها ، وجاء فيه كلام عن الحضارات القديمة وأهلها ، فجاء هذا وذاك متمشياً مع ما جاء به الإسلام من ذلك الغرض السابق ، فهو إذا ذكر سكان البادية من الأعراب كان شديداً عليهم ، لجأهم وجفوتهم وبعدهم عن الصفات التي تحبب الإسلام إليهم ، لأن الإسلام يدعو إلى النظام

والطاعة ، وهم يؤثرون الفوضى والعصيان ، ويعيشون على السلب والنهب ، ومن ذلك قوله تعالى في الآية ٩٧ ، من سورة التوبة (الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم) فجعل بداوتهم سبباً في شدة كفرهم ونفاقهم وجهلهم بحدود ما أنزل الله على رسوله ، ولا يريد الله تعالى إلا أن هذا هو شأنهم وديدهم ، وهو الطبع الغالب عليهم ، والحال الظاهر فيهم ، وقد يوجد فيهم من لا يكون على هذا الحال ، كما قال تعالى في الآية ٩٩ ، من سورة التوبة (ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم) .

وكذلك قال الله تعالى في الآية ١٤ ، من سورة الحجرات (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتمس من أفعالكم شيئاً إن الله غفور رحيم) فذكر أن شأنهم النفاق أيضاً ، وقد نزل هذا في قوم من الأعراب أتوا النبي صلى الله عليه وسلم وهو قائل في أهله ، فجعلوا ينادونه من وراء الحجرات : يا محمد ، أخرج إلينا . حتى أيقظوه من نومه ، وقد ندد الله بهذه الجفوة منهم قبل ذلك ، فقال في الآيتين ٤٥ ، من هذه السورة (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم) وكان هؤلاء الأعراب من تميم ، وفيهم الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن والزبرقان بن بدر ، وكان من ندائهم : يا محمد ، أخرج إلينا ، فإن مدحنا زين ، وذمنا شين . فخرج النبي صلى الله عليه وسلم إليهم وهو يقول : إنما ذلكم الله الذي مدحنا زين ، وذمنا شين . فقالوا :

نحن ناس من نهم ، جئنا بشاعرنا وخطيبنا ، جئنا نشاعرك ونفاخرك .
فقال لهم : ما بالشعر بعثت . ولا بالفخر أمرت ، ولكن هاتوا .
فقام شاب منهم فذكر فضله وفضل قومه ، فقال صلى الله عليه وسلم
لثابت بن قيس : قم فأجبه . وكان ثابت خطيب النبي صلى الله عليه وسلم ،
فقام فأجابه ، ثم قام الزبرقان فقال :

نحن الكرام فلا حي يعادلنا منا الملوك وفيما تنصب البيع
وكم قسرنا من الأحياء كلهم عند النهاب وفضل العز يتبع
و نحن نطعم عند القحط مطعمنا من الشواء إذا لم يؤنس القزع
فنهجر الكوم عبطا في أرومتنا للنازليين إذا ما أنزلوا شبعوا
فلا ترانا إلى حي نفاخرهم إلا استقادوا فكانوا الرأس تقطع
فمن يفاخرنا في ذاك نعرفه فيرجع القوم والأخبار تستمع
إنا أيينا ولا يأتينا لنا أحد إنا كذلك عند الفخر نرتفع
فقال النبي صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت : قم فأجبه .
فقام فقال :

إن الذوائب من فخر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بهم كل من كانت سريرته تقوى الإله وكل الخير يصطنع
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أوحاوا والتفّع في أشياءهم نفّعوا
سجية تلك منهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع
أعفة ذكرت في الوحي عفتهم لا يطبعون ولا يردبهم طمع
لا يخلون على جار بفضلهم ولا يمسهم من مطمع طبع
لا يفخرون إذا نالوا عدوهم وإن أصيبوا فلا خور ولا هلع
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم إذا تفاوت الأهواء والشيع

فكذلك أبت عليهم جفوتهم إلا أن يفاخروا النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يسمعوا لما ذكره من أنه لم يبعث بالشعر والفخر ، وقد فاخروه بما كانوا يفخرون به في جاهليتهم . فقآخرهم شاعره بما جاء به الإسلام مما لا يصح الفخر إلا به ، من تقوى الله ونحوه .

وهذا كان شأن القرآن مع أهل البادية من الأعراب ، وقد جاهد الإسلام في القضاء على البداوة العربية وآثامها حتى قضى عليها ، وجعل أهلها إخوانا يرعى بعضهم بعضاً . ولا يستبيح شيئاً من ماله أو دمه ، وجعل من العرب عامة أمة متآلفة متحابّة ذات علم وحضارة . أما شأنه مع الحضارات القديمة ، فإنه وقف منها موقفاً عادلاً ، فذم ما كان من طغيان أهلها وجبروتهم ، ومدح ما يستحق المدح من آثارها في عمارة البلدان . وعجائب الصناعة . ونشر التجارة والزراعة ، وما إلى هذا من آثار الحضارة .

الحضارة المصرية القديمة :

فذكر الحضارة المصرية القديمة . وقد كانت حضارة عظيمة يعترز الآن بها أبناء مصر ويفد السائحون لمشاهدة آثارها من سائر الأقطار فيمتعون برؤية عجائبها . وتمتلى نفوسهم روعة بمشاهدة غرائبها ، وتفعم قلوبهم إعجاباً بها ، وقد جاء ذكر هذه الحضارة العظيمة فيما جاء في القرآن من أخبار فرعون وموسى عليه السلام ، فمدح منها ما يستحق المدح وأثنى عليه أحسن ثناء . وهو ما كان منها متجهاً إلى مصلحة الرعية من تعمير الأرض ، وشق الأنهار ، والعناية بتوفير الخيرات ، حتى تنمو الثروة ، وتعم الناس كلهم ، فلا يتمتع الملك وحده بثروة بلاده ، وينفقها في سبيل شهواته وملذاته .

ومن ذلك ما ورد في وصف ما تركه فرعون بعد غرقه من آثار هذه الحضارة . كما قال تعالى في الآيات ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ .

٢٩ ، من سورة الدخان (و اترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون ،
كم تركوا من جنات و عيون ، و زرع و مقام كريم ، و تعمة كانوا فيها
فاكهن ، كذلك و أورثناها قوماً آخرين ، فما بكت عليهم السماء
وما كانوا منظرين) و كما قال أيضاً في الآيات ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ،
من سورة الشعراء (فأخرجناهم من جنات و عيون . و كنوز و مقام
كريم . كذلك و أورثناها بني إسرائيل فأتبعوهم مشرقين) .

و قد ذكر المفسرون في وصف تلك الجنات و العيون أن البساتين
كانت ممتدة على حافتي النيل ، فيها عيون و أنهار جارية . و ذكروا في
وصف ذلك المقام الكريم أنه أراد به مجالس الأمراء و الرؤساء التي
كانت لهم ، و قد قيل : إن فرعون كان إذا قعد على سرير و وضع بين يديه
ثلثمائة كرسي من ذهب يجلس عليها الأمراء و الأشراف من قومه ،
و عليهم أقبية الديباج مخوصة بالذهب .

و قد كان للحضارة المصرية القديمة عيوب بجانب هذه المحاسن ،
فندد القرآن بها تنديداً شديداً ، و ذكر أنها هي التي قضت على هذه
الحضارة ، و جعلتها تنتقل إلى قوم آخرين ، لأن الحضارة ميراث في
الأرض لمن يعمل على إصلاحها ، و يقيم موازين العدل فيها ، و قد جعل
الله هذا سنة من سننه في الخلق ، كما قال تعالى في الآية ١٥٠ ، من سورة
الأنبياء (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها
عبادى الصالحون) فالمراد بالصالحين في هذه الآية الصالحون لعبادتها ،
و إقامة معالم الحضارة فيها ، وهذا هو الذي يشهد به علم التاريخ ، لأن من
ينظر فيه يجد أن الحضارة لم تثبت في أمة من الأمم ، ولم يستأثر بها شعب
من الشعوب ، بل كانت تنتقل من أمة إلى أمة ، و من شعب إلى شعب ،
و تسير في هذا على سنن ثابت لا يتبدل ، فتجد الأمة و تجتهد حتى تنهض
و تأخذ بوسائل الحضارة ، ثم تنظر إلى نفسها نظرة إعجاب و تأخذ في

الظلم والطغيان، فيسلبهم الله عزهم، ويورث حضارتهم قوما آخرين يصلحون لها، حتى إذا فسدوا نقلها منهم إلى غيرهم، على سنن عادل لا يتغير فدم الله من الحضارة المصرية القديمة ما كان منها قائماً على التفريق في الحكم بين الشعوب، فيكون غنمه للشعب القوى، ويكون غرمه للشعوب الضعيفة التي تبلى بحكمه، كما قال تعالى في الآيات ٤، ٥، ٦، من سورة النقص: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ، وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ، وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ) وقد كان فرعون يستعبد في ذلك بني إسرائيل، ويستخدمهم في مصلحة قومه من أهل مصر، ثم طغى فيهم حتى كان يذبح أبناءهم ويستحْيي نساءهم، وما كان للقرآن إلا أن يذم هذا الحكم الظالم، لأنه ينشد حكماً عادلاً تستوى فيه الشعوب، ولا يستخدم فيه شعب لمصلحة شعب آخر، لأن هذا مما يثير الضغائن بين الشعوب، وبقيم بينها الخصومات والحروب، والحروب تعوق الشعوب عن التقدم والنهوض، وتضيع أموالها في اقتناء وسائل الخراب والتدمير.

وهنا خطأ المفسرين فيما كان من إرث بني إسرائيل لفرعون وقومه، وهو الذي ورد في قوله تعالى فيما سبق (كذلك وأورثناها بني إسرائيل) فقد ذكروا أن الله رد بني إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه، فأعطاهم جميع ما كان لهم من الأموال والأماكن الحسنة، وهذا خطأ طاهر، لأننا إذا رجعنا إلى تاريخ بني إسرائيل وتاريخ مصر في ذلك العهد لانجد فيهما ما يثبت رجوع بني إسرائيل إلى

مصر بذلك الشكل بعد خروجهم منها ، فلم يثبت فيهما أنهم رجعوا إلى مصر فلم يتركوا فيها ما كان يملكه فرعون وقومه من الأموال والأماكن الحسنة ، وإنما ثبت أنهم استولوا على فلسطين فأقاموا فيها إلى أن زالت دولتهم ، وملسوها من ظهر فيها بعدهم ، والحق أن الله تعالى يشير إلى ما أورثهم من بساتين وعيون في فلسطين لافي مصر ، وكان هذا بعد أن استولوا عليها ، وأقاموا فيها دولة لهم ، وقد بلغت أوج عظمتها في عهد داود وسليمان عليهما السلام ، فالضمير في قوله (أورثناها) يعود إلى مطلق الجنات والعيون وما ذكر معها ، ولا يعود إلى خصوص ما كان منها في مصر على ذلك العهد ، وهذا من أسلوب الاستخدام المؤلف في لغة العرب ، ويعتمد في بيان المراد منه على السياق وقرائن الأحوال .

الحضارة الكلدانية القديمة :

ثم ذكر الحضارة الكلدانية القديمة بالعراق ، والكلدان أمة سامية قديمة ، كانت لهم حضارة تضاهي الحضارة المصرية في القدم ، وقد قامت حضارتهم على أساس الاهتمام بمعرفة أحوال الكواكب والنجوم ، فبرعوا في علم الفلك ، وفي كل ما يتصل به من العلوم كالسحر والتنجيم ، ولم يهتموا بالعلوم التي تعنى بالأرض من الزراعة والصناعة والتجارة ، لأن جل اهتمامهم كان متجهاً إلى السماء لا إلى الأرض ، فاتخذوا من كواكبها آلهة يعبدونها ، ويشتهلون بمعرفة أحوالها ، ولا شك أن مثل هذه الحضارة تكون أقل شأنًا من الحضارة التي تعنى بالأرض وعمارتها ، ولهذا لا تترك آثاراً عظيمة في الأرض مثلها ، وقد ذهبت الحضارة الكلدانية ، ولم تترك وراءها إلا شهرة عاصمتها بابل بالسحر ، وهي شهرة لا ترفع من شأنها ، ولا تجعل لها منزلة عالية بين الحضارات القديمة .

وقد أشار القرآن إلى ما اشتهرت به بابل من السحر في الآية

١٠٢ ، من سورة البقرة (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ
سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ
السَّحَرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكِينَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ
مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ
بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ
وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لِمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي
الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

ولاشك أن القرآن يشير بهذا إلى ما كان من ضعف تلك الحضارة ،
وإلى ما كان من رواج الخرافات فيها ، باهتمامها بذلك العلم الباطل ،
واستخدامه في تلك الأغراض القبيحة ، وهو يشير أيضا إلى أن
المشتغلين به كان لهم سلطان كبير في تلك الحضارة ، حتى كانوا أصحاب
الأمر والنهي فيها ، لأنهم كانوا يوهمون الناس بأن لهم قوة غيبية وراء
الأسباب التي ربط الله بها المسببات في الدنيا ، فيفعلون أمامهم
ما يوهمونهم به أن لهم استعدادا فوق استعدادهم ، وقوة فوق قوتهم ،
وأنهم يستعينون على سحرهم بالشياطين وأرواح الكواكب ، إلى
غير هذا من ضلالهم وجهلهم ، وقد أراد الله أن يظهر لهم أمر هذا
العلم الباطل ، فأرسل إليهم هاروت وماروت يعلمانهم حقيقة نفسه ،
ويبينان لهم أن المشتغلين به بشر مثلهم ، لا قدرة لهم على النفع والضرر ،
وأن السحر إما شععوذة لا أصل لها ، وإما صناعة خفية يعرفها
بعض الناس ، وحينئذ يكون في استطاعة كثير من الناس أن يتعلمه ،
وأن يقوم بما يقوم به المشتغلون به من الأمور الغريبة ، فلا يكون
راجعا إلى قوة غيبية فيهم كما يزعمون ، ولا أثر فيه للشياطين وأرواح
الكواكب ، ولكنه ليس من العلوم التي يليق الاشتغال بها ، لأنه

يضر ولا ينفع . فلا يشتغل به ذو خلق كريم . وإنما يشتغل به كل
دجال مُشَغَوذ .

الحضارة الحميرية القديمة .

ثم ذكر الحضارة الحميرية القديمة باليمن ، والحميريون ينسبون
إلى حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وكان لهم ملك عريق
باليمن ، وحضارة يشهد بفضلها ما بقي من آثارها ، ومن أشهر دولهم
في اليمن دولة سبأ ، وكانت دولة تجارية عظيمة ، وكان أهلها يشتغلون
بنقل التجارة بين الهند والحبشة والعراق والشام ومصر ، فنمت ثروتهم
بالتجارة ، وزهت حضارتهم بوفرة ثروتهم ، وكانت حضارة مثمرة
نافعة ، تعنى بعمارة البلدان وشق الأنهار ، وإقامة السدود التي تحفظ
المياه بين الجبال ، لتوزع على الأرض المزروعة بقدر حاجتها إليها ،
ولا يذهب منها شيء سدى ، فعمرت بهذا بلاد اليمن ، وشيدت فيها
القصور العظيمة ، وانتشرت فيها الزروع والحدايق . حتى كانت تعرف
قديماً بالبلاد السعيدة .

وقد نوه القرآن بحضارة سبأ حين ذكرها تنويهاً عظيماً ، وجعلها
لعظمتها آية من آيات الله ، فقال تعالى في الآيات (١٥ ، ١٦ ، ١٧ ،
١٨ ، ١٩ ، من سورة سبأ) لقد كان لسبأ في مسكنهم آيةً من جنتان عن
يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ،
فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذوات
أكل خبط وأثل وشيء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل
نجازي إلا الكفور ، وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى
ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين . فقالوا ربنا
باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديثاً ومن قنابهم كل مزق
إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور .

وقد ذكر المفسرون في عظمة تلك الجنات أن المرأة كانت تحمل
مكتلها على رأسها وتمر به، فيمتلئ من أنواع الفواكه من غير أن تمس
بيدها شيئاً، وذكروا في عظمة تلك البلدة الطيبة أنه لم يكن يرى بها
بعوض ولا ذباب ولا برغوث ولا حية ولا عقرب، وأن الرجل
كان يمر بها وفي ثيابه القمل فيموت من طيب الهواء، وذكروا في عظمة
تلك القرى الظاهرة أنها كانت تتواصل من اليمن إلى الشام، فإذا سافروا
فيها لم تاجرهم يبيتون بقرية ويقلون بأخرى. وكلما وصلوا إلى قرية
وجدوا فيها المياه والزروع والأشجار. فلا يحتاجون إلى حمل زاد
من سبأ إلى الشام. وقد أشار القرآن بهذا إلى ما كان من قيام عظمة
تلك الدولة على الاهتمام بالتجارة ونقلها بين تلك البلاد. كما أشار
بقوله (باعد بين أسفارنا) إلى أن زوال عظمتها كان بسبب انتقال
زمام هذه التجارة من أيدي أهلها إلى أيدي أخرى. وقد أيد التاريخ
الحديث هذه الإشارة، فذكر أن هذه الدولة مكثت ناهضة إلى أن
انتقلت التجارة من أيدي أهلها بسبب انتقال طريقها من البر إلى
البحر. فأدى بها هذا إلى الضعف، حتى عجزت عن حفظ السدود التي
كانت تحجز المياه لسقي زروعها وأشجارها. فأخذت تنهار سداً بعد
سد، حتى انتهت بانهار سد مأرب، وفي هذا ما يدل على أن القرآن
من عند الله تعالى، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن في أميته بحيث
يصل إلى ما وصل إليه التاريخ الحديث في عصرنا، وهو لم يصل إليه
إلا بعد جهود مضيئة في كشف آثار تلك الدولة.

حضارة بني إسرائيل :

ثم ذكر حضارة بني إسرائيل حين وصلت إلى أوج عظمتها في عهد
داود وسليمان عليهما السلام، وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق
ابن إبراهيم خليل الله، وكان بنو إسرائيل قد انتقلوا إلى مصر في عهد

يوسف بن يعقوب ، فاقاموا فيها إلى أن بعث فيهم موسى عليه السلام ، وكان أهل مصر يدينون بالوثنية ، وكان بنو إسرائيل يدينون بالتوحيد ، فلقوا بسببه ما لقوا في مصر من الذل والهوان ، إلى أن أراد الله تعالى إظهار دين التوحيد في الأرض ، وإقامة حضارة له تقوم على أساس رفع شأن الإنسانية ، وتخليصها مما تردت فيه من جهالات الوثنية ، وإنقاذها من طغيان ملوكها وكهنتها ، وقد بشر الله بهذه الحضارة قبل ظهورها تنوياً بشأنها ، وتعظيماً لقدرها ، فقال تعالى في الآيات ٤ ، ٥ ، ٦ ، من سورة القصص (إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) .

فهو ينقم جبروت هذا الجبار الوثني ، ويبشر الذين استضعفهم بأنه سيورثهم الأرض بعده ، فتأخذ دولتهم في الظهور إلى أن تضعف من شأن الوثنية ، وتكون لها بعدها السيادة على الأرض ، وهو في هذا لا ينقم ظلم اليهود (بنى إسرائيل) بعنوان أنهم يهود ، ولا يبشر بظهور دولة لهم بخصوصهم . وإنما يتحدث عنهم في ذلك بعنوان أنهم شعب موحد ، فيبشرهم بذلك لأنهم موحدون لا يهود ، ويكون شأن غيرهم من الموحدين في ذلك كشأنهم ؛ فتقوم لهم جميعاً دول تغلب على الأرض ، وتظهر لهم حضارات أعلى من الحضارات الوثنية ، وقد بدأ هذا بظهور دولة اليهود في فلسطين ، فقام فيها كثير من الأنبياء يدعون إلى التوحيد ، وكانت دعوتهم خاصة ببنى إسرائيل إلى أن قام فيهم عيسى عليه السلام ، فجاوزت دعوته أرض فلسطين ، ودانت بها

دولة الروم ، وكانت دولة قوية تملك نصف الكرة الغربي ، ثم ظهر من بين العرب إمام من أوائك الأئمة الموحدين الذين بشر الله بهم ، فنشر دين التوحيد في نصف الكرة الشرقي ، وزاحم دولة الروم في نصفها الغربي ، وتمت بهذا غلبة دول التوحيد على الأرض ، وصدقت بشارة الله تعالى بهذه الغلبة .

وقد أشار القرآن إلى غاية ما وصلت إليه حضارة بني إسرائيل في عهد داود وسليمان عليهما السلام ، ونوه بها في آيات كثيرة في بعض سورته ، فقال تعالى في الآيات (١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، من سورة سبأ) (ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير ، ولسيمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور) وهذا يشير إلى ما كان من ارتقاء العلوم والآداب في ذلك العهد ، وإلى ما كان من تقدم الصناعة فيه ، وإلى ما كان من تقدم التجارة أيضا ، وقد كان سليمان عليه السلام أسطول تجاري عظيم ، وكان يشق البحار غربا إلى بلاد الأندلس ، وجنوبا إلى بلاد اليمن وجنوب أفريقيا ، وكانت سماء فلسطين تلمع في عهده بما أقامه فيها من المدن العظيمة ، وبما شيده فيها من اقصور الجميلة ، وما أنشأه من بيوت العبادة الضخمة ، وكان من أعجب ما شيده ذلك الصرح الذي ورد ذكره في الآية (٤٣) ، من سورة النمل (قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبه لحية وكشفت عن ساقها قال إنه صرح ممرد

من قوارير) وكان سليمان قد بنى هذا الصرح لبلفيس ملحة سبا ، وقد ذكر المفسرون أنه كان قصر أ من الزجاج الأبيض كالماء ، وقد أقامه على ماء يجرى تحته ، وألقى فيه السمك والضفادع وغيرها من دواب البحر ، ثم وضع سريره في صدر المجلس وجلس عليه ، فلما جاءت بلفيس لتدخل عليه حسبت هذا القصر الجدة عظيمة من الماء ، فكشفت عن ساقها لتخوضها إليه . فقال لها : إنه صرح يرد من قوارير .

وقد كان داود وسليمان نبيين من أنبياء الله تعالى ، وفي ظهور هذا كله في عهدهما حجة على اعداء التوحيد الذين يظنون أنه يحاكي معالم الحضارة ، ويغض مظاهر الجمال ، ولا يتسع لها كما تتسع الوثنية . كما أن فيه حجة أخرى على المنتطعين في الدين ، لأنهم يظنون أنه ليس إلا خشونة وتقشفا ، وأنه لا يعرف شيئا من لين الحياة وطيبها .

وقد انتهت حضارة بني إسرائيل بما انتهت به الحضارات الوثنية قبلها ، لأن سمن الله واحدة في الحضارة ، فلا محسوبة فيها ولا محاباة ، وقد ظن بنو إسرائيل أن ما وصلوا إليه في الدين والحضارة كان عن إيثار من الله لهم عن غيرهم من الشعوب ، فزعموا أنهم شعب الله المختار ، وركبوا إلى الجهل والغرور ، فضعفت عزائمهم وفترت همهم ، حتى استعبد رؤسائهم وأحبارهم ، وضعفت دولتهم بضعفهم ، وذهبت كما ذهب غيرها من الدول .

الحضارة اليونانية :

ثم ذكر حضارة اليونان في عهد الإسكندر المقدوني ، واليونان من الجنس الآري ، وهم أول من حمل لواء الحضارة من هذا الجنس ، وتمتاز حضارتهم بطابعها العلي ، وأنها كانت نهضة عليية وضعت حدا فاصلا في التاريخ ، وجعلت العلم يقوم على أساس النظر والبحث ،

ورتبته ترتيباً لا يزال العلماء يراعونه إلى عصرنا الحاضر ، وإذا كان غيرها من الحضارات قد ترك لنا أحجاراً مشيدة فإنها قد تركت لنا أعلاماً في العلم ، لا يزال الناس عالقة على علمهم ، كفيثاغورث وسقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم .

وقد وصلت هذه الحضارة إلى أوج عظمتها في عهد الإسكندر المقدوني ، وهو أعظم فاتح في العصر القديم ، ويمتاز على غيره بأنه كان يقصد من فتحه نشر الثقافة العلمية التي وصلت إليها الحضارة اليونانية ، ليقرب بين شعوب الغرب والشرق ، ويوحد بين الأجناس البشرية المختلفة ، وهذه غاية شريفة يحمدها عليها ، وسعيه فيها يشبه سعي الأنبياء ، ولكنهم كانوا يعتمدون في سعيهم على الوحي ، أما هو فكان يعتمد في سعيه على العقل .

وقد ذكر القرآن ما كان من الإسكندر المقدوني في الآيات ٨٣ - ٩٨ ، من سورة الكهف (ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً ، إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً ، فأتبع سبباً ، حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوماً ، قلنا يا ذا القرنين إنا أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً ، قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً ، وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً ، ثم أتبع سبباً ، حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سبباً ، كذلك وقد أخطأنا بالديه خبراً ، ثم أتبع سبباً ، حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولاً ، قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم

سداً ، قال ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم
ردماً ، آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى
إذا جعله ناراً قال آتونى أفرغ عليه قطراً ، فما استطاعوا أن يظهره
وما استطاعوا له نقباً ، قال هذا رحمة من ربى فإذا جاء وعد ربى جعله
دكا وكان وعد ربى حقاً .

فذو القرنين الذى ذكر الله فتوحاته فى هذه الآيات هو الإسكندر
المقدونى عند كثير من المفسرين ، وقد كان أبوه فيليب ملكاً على
مقدونيا ، فعمل على أن يجمع بين البلاد اليونانية فى حلف تتولى
مقدونيا زعامته ، ليووجه قوة اليونان بعد توحيدها نحو الفتح الخارجى ،
وقد عنى بتربية ابنه الإسكندر ، فأحضر له أرسطو أشهر فلاسفة
اليونان ، لياخذ عنه العلم والفلسفة ، فرباه أحسن تربية ، وثقافته
ثقة علمية واسعة ، حتى نشأ محباً للفلسفة والعلم ، وقد مات أبوه قبل
أن يصل إلى غايته من توحيد قوة اليونان ، وتوجيهها نحو الفتح
الخارجى . وكان ابنه الإسكندر يبلغ إحدى وعشرين سنة ، فلفه على
عرش مقدونيا ، وعمل على تحقيق الغاية التى أرادها ، فأخضع بلاد
اليونان كلها لسلطانه ، ثم توجه نحو الفتح الخارجى ، فعبر مضيق
الدرديبل إلى الأناضول ، وكان تحت يده دولة الفرس ، فانتزعه منها ،
ثم اتجه غرباً نحو الشام ومصر ، فانتزعهما أيضاً من دولة الفرس ،
وما زال يسير غرباً حتى بلغ واحة سيوة ، وكان فيها عين يقدسها
أهلها تسمى عين الشمس . وهى العين الحمئة أو الحامية التى جاء فى الآيات
السابقة أنه بلغها فى فتوحاته الغربية . ثم عاد فاتجه نحو الشرق قاصداً
بلاد الفرس ، ليقضى على دولتهم فيها ، فقتل ملكهم دارا واستولى
على مملكته ، ثم جاوزها شرقاً حتى بلغ سهول الهند الشمالية . ووصل

إلى بلاد الترك وهي بلاد يأجوج ومأجوج التي جاء في الآيات السابقة أنه بلغها في فتوحاته الشرقية .

ولا شك أن اتجاه هذه الفتوحات يوافق اتجاه الفتوحات التي نسبت في الآيات السابقة إلى ذى القرنين ، فيكون ذو القرنين فيها هو الإسكندر المقدوني ، وهذا إلى أن الإسكندر المقدوني كان يلقب بذى القرنين ، وفي حمل القرآن عليه جمع بينه وبين ما ثبت في التاريخ الصحيح ، بخلاف حمله على غيره ممن ذهب إليه بعض المفسرين ، فإنه لا يزال يُعزو سنده من التاريخ الصحيح ، ولا يوجد من الاعتراض على أن ذا القرنين هو الإسكندر المقدوني إلا أنه كان على مذهب فلاسفة اليونان ، وهو مذهب باطل لا يوافق ما جاء في القرآن عن ذى القرنين ، لأنه يفيد أنه كان مؤمناً ، وأن الله كان يخاطبه ويوجهه في فتوحاته ، والجواب عن هذا أن مذهب فلاسفة اليونان كان قائماً على الإيمان باقته ، وقد كان من هؤلاء الفلاسفة من ادعى الإلهام والوحي كفيثاغورث وسقراط ، ولا يوجد في الإسلام ما يمنع من قبول دعواهما ، لأن القرآن صريح في أنه ما من أمة إلا وقد بعث فيها رسول ، كما قال تعالى في الآية (٢٤) من سورة فاطر (إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) ولهذا يوجد لهذه الفلسفة كثير من الأنصار بين اليهود والنصارى والمسلمين ، لا يرون أنها تخالف دياناتهم ، ولا يذهبون إلى تكفير أصحابها كما يذهب غيرهم ، وإنى لا أتمسك كثيراً بأنه كان في هذه الفلسفة إلهام ووحى ، ولكن هذا لا ينقص من قدرها ، لأن أصحابها إذا كانوا قد اجتهدوا بعقولهم فإنهم قد وصلوا بها إلى أسنى

المعارف التي وصلت العقول إليها في العصور القديمة ، فأمنوا بأن
هناك مدبراً لهذا الكون ، ووصلوا إلى كثير من حقائقه وأسراره ،
ومثل هذا لا شيء على القرآن في أن ينوّه بملك كان يعمل على حمايته ،
وتقوم فتوحاته لأجل نشره ، وقد تكون له بعض أخطاء في ذلك ،
ولكنه لا يؤخذ شرعاً عليها ، لأن المؤاخذه إنما تكون مع
الوحي والرسالة .

هل ذو القرنين هو الإسكندر أو كورش

ذكر الأستاذ إبراهيم الدسوقي في العدد ٥٠٦ ، من مجلة الرسالة أن بعض المؤرخين يزعم أن الإسكندر المقدوني هو ذو القرنين المذكور في القرآن ، مع أنه لم يذكر فيه إلا بعد أن سأل اليهود عنه ، لأنهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن رجل جاب الدنيا شرقا وغربا ، وكان له ملك عظيم ، وهم يقصدون به ذا القرنين المذكور في التوراة ، فقد رأى دانيال في المنام كبشا ذا قرنين ، ففسر بمملكة فارس التي لم تكن قد ظهرت بعد ، ورأى كبشا آخر ذا قرن واحد يهجم على هذا الكبش ذي القرنين ويقتله ، ففسر بملك من اليونان يظهر ويقضى على دولة الفرس ، وعلى هذا يكون المقصود بذي القرنين دولة فارس التي أسسها الملك كورش ، ويكون المقصود بذي القرن الواحد الإسكندر المقدوني ، لأنه هو الذي قتل دارا الثالث وقضى على دولة الفرس .

وكانت دولة فارس عاصمتها سوس في الجنوبي الغربي لإيران ، وكانت تتألف من الشعب الفارسي في الجنوب والميديين في الشمال ، والقرنان إشارة الى هذين الجنسيتين ، والقرن الواحد إشارة الى اليونان ، لأنهم جنس واحد ، وكانت دولة فارس تملك التركستان في وسط آسيا ، وبابل في حوض نهر دجلة والفرات في الجنوب ، وآشور في شمال بلاد النهرين ، وآسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ومصر ، فالآيات القرآنية الواردة في ذي القرنين هي تاريخ دولة الفرس من أولها الى آخرها ، وقد رفع القرآن ذا القرنين الى مرتبة المؤمنين ،

مع ان الإسكندر المقدوني كان وثنيا يدعى انه ابن الإله آمون ، وكان منتهكا يميل الى الفجور وشرب الخمر ، فلا يعقل أن يكون هو ذا القرنين ، وإنما هو كورش الذى اتجه غربا ففتح بلاد سورية حتى بلغ البحر الأبيض المتوسط ، فوجد الشمس تغرب فيه ، وهو الذى أقام سد يأجوج ومأجوج ، وهو الآن فى موضع يسمى « در بند » ومعناها السد ، وهو أثر سد قديم بين الجبال فى بلاد التركستان ، ويروى أنه كان خلفه قديما قبيلتان تسميان ياقوق وماقوق ، وقد غار بفعل الزلازل .

ولا شك أن رؤيا دانيال ليست نصا فى أن ذا القرنين فيها هو كورش ، لأنه يجوز حمله على غيره بمثل ما حمل عليه . ولا سيما أنه لم يعرف بهذا اللقب بعد ظهوره ، أما الإسكندر المقدوني فكان يعرف بذى القرنين ، جاء فى مجلة المقتطف أنه عثر على نقود مضروبة فى عهده وفيها صورته والتاج بقرنيه على رأسه ، أما دعوى أنه كان وثنيا فلا أدل على بطلانها من أنه كان تلميذا لأرسطو ، وكان أرسطو رأس فلاسفة اليونان ، والفلسفة اليونانية تقوم على أساس الإيمان بعلّة واحدة لهذا الكون ، ولهذا رأى كثير من فلاسفة اليهود والنصارى والمسلمين أنه لا خلاف بينها فى ذلك وبين اليهودية والنصرانية والديانة الإسلامية ، ولا ينافى هذا ما كان يفعله الإسكندر مع آلهة البلاد التى كان يفتحها ، لأنه كان يتظاهر باتباع ديانة ما يفتحه من البلاد وإن لم تكن صحيحة عنده ، ليتقرب بهذا الى أهلها ، كما جاء فى كتاب مناهج الألباب المصرية لرفاعة بك ، على أن تلك الآلهة كانت فى أصلها رجالا من الصلحاء ، فبالغ قومهم فى تعظيمهم حتى عبدوهم وجعلوهم آلهة ، ومن الممكن أن يكون تعظيم الإسكندر لها

لم يكن على وجه العبادة ، بل بالنظر الى أصلها قبل أن تتخذ آلهة ،
ومثل هذا ليس فى شىء من الوثنية ، والحقيقة أن كورش أبعد عن
الإيمان من الإسكندر ، لأن الفرس كانوا يجوسا يدينون بآلهة متعددة ،
على أن الأستاذ الدسوقي قد حمل ذا القرنين على دولة الفرس كلها ،
ولا شك أن هذا لا يطابق سؤال اليهود . لأنهم سألوا عن رجل
واحد لا عن دولة وملوك متعددة .

وقد عاد الأستاذ الدسوقي إلى تأييد رأيه ، فذكر أن الفُرس
لم يكونوا وثنيين ، وأن كورش ومن بعده من الملوك إلى دارا كانوا
على دين زرادشت نبي الفرس ، وكان له كتاب مقدس يسمى
أوستتا ، ولهذا عامل المسلمون الفرس حين فتحوا بلادهم معاملة
أهل الكتاب ، وإن كانوا قد حرقوا ديارهم ، ودانوا بإله الخير وإله
الشر ، وكورش هو الذى أعاد بناء بيت المقدس ، وقبض هو الذى
حطم أصنام المصريين حين فتح بلادهم ، وآيات القرآن فى ذى القرنين
موافقة لحال كورش بشكل ظاهر ، فقد اتجه فى فتوحه غرباً أولاً ،
حتى وصل إلى البحر واستولى على سوريا وآسيا الصغرى ، ثم اتجه
بعد هذا شرقاً ، حتى وصل إلى الهند والتركستان ، حيث توجد آثار
السد القديم ، ولا يزال مكانه بين جبلين ، ويسمى دربند ، أى السد ،
أما الإسكندر فإنه اتجه شرقاً أولاً ، ثم اتجه جنوباً ، ولم يتجه غرباً
إلا عند فتحه مصر ، وهذا خلاف ما جاء فى ذى القرنين من القرآن ،
كما أنه خلاف ما جاء فى التوراة من حمل ذى القرنين على ملوك فارس .

ولا شك أنه فى أول كلامه هنا يرى أن ذا القرنين هو كورش
وحده من ملوك فارس ، ولكنه يعوده فينقضه ويرجع إلى ما ذكره
قبل ذلك من أن ذا القرنين يمثل ملوك فارس كلهم ، على أن ما ذكر

من موافقة ما جاء في ذى القرنين من القرآن لحال كورش باطل من وجوه :

١ — أن بلاد فارس تقع في جنوب آسيا ، فإذا اتجه كورش منها إلى سوريا وآسيا الصغرى يكون متجها شمالا لا غربا ، وهذا إلى أن سوريا وآسيا الصغرى تقعان في قلب المعمور من نصف الكرة القديم ، فلا يقال فيمن وصل إليهما إنه بلغ مغرب الشمس ، وإنما يقال فيمن وصل إلى أوائل بلاد المغرب على الأقل .

٢ — أن كورش حينما اتجه إلى السكيثين (التتر) لقيته الملكة طوميريس ، ف وقعت بينهم حرب انتهت بأسره و قتله ، وهذا لا يوافق ما ذكره القرآن في ذى القرنين حين وصل إلى بلاد التتر ، لأنهم لم يقتلوه كما قتلوا كورش ، بل بنى دونهم سدا لم يستطيعوا أن يظهروه ولم يستطيعوا له نقبا .

٣ — أن رؤيا دانيال ليس فيها إلا تمثيل دولة الفرس بكبش ذى قرنين ، وتمثيل دولة اليونان بتيس ذى قرن واحد ، وهذا لا يقتضى تلقيب ملوك فارس بلقب ذى القرنين ، كما لم يقتض تلقيب ملوك اليونان بذى القرن الواحد .

أما الإسكندر فإنه كان يلقب بذى القرنين كما ذكره كثير من المؤرخين ، وقد اتجه في فتوحاته من اليونان إلى آسيا الصغرى ، فحارب فيها دارا وهزمه ، ثم اتجه إلى سوريا ومصر حتى وصل إلى واحة سيوة ، وهى في أوائل بلاد المغرب ، وبهذا يمكن أن يقال إنه وصل إلى مغرب الشمس . أى إلى بلاد المغرب ، ثم عاد بعد ذلك فاتجه إلى الشرق ، وفتح بلاد فارس وما وراءها حتى وصل إلى بلاد الترك ، وهذا يوافق ما جاء عن ذى القرنين في القرآن ولا يخالفه في شيء .

وقد حاول الأستاذ الدسوقي أن ينفي الوثنية عن ملوك الفرس بنسبتهم إلى زرادشت ، ولكن هذا لا يوافق ما جاء في التاريخ عن أسيلاج جد كورش لأمه . فقد جاء فيه أنه دعا أرباغوس من حاشيته ليحضر ما يقدمه من قربان لآلهته شكراً لهم على سلامة كورش ، فقدم لأرباغوس لحم ابنه مطبوخاً فأكله ، لأنه لم يقتل كورش حين سلمه إليه وهو وليد ليقته ، وكذلك كان كورش وقمبيز وغيرهما من ملوك فارس ، وهذا لا يمنع أن بعضهم كان يؤمن بإله اليهود مع آلهته ، لأن هذا لا ينفي الوثنية عنه ، وإنما ينفيها الإيمان بالله وحده .

أما الإسكندر فقد سبق إثبات إيمانه ، على أن المهم في ذلك أن اليهود الذين سألوا عن ذى القرنين كانوا يعتقدون في الإسكندر قريباً من اعتقادهم فيه ، فقد ذكر مؤرخوهم أنه لما قصد أورشليم لفتحها سار في بعض الطرق فرأى رجلاً بهياً لابساً ثياباً بيضاء وبيده سيف مثل البرق اللامع ، يشير به إليه كأنه يريد قتله ، ففرغ منه وعلم أنه ملاك مرسل من الله تعالى ، فسقط على وجهه وسجد ، ثم قال : ياسيدى ، لماذا تقتل عبدك ؟

فقال : لأنك تريد أن تمضى إلى القدس لتهلك كهنته وأمته ، وأنا الملاك الذى أرسلنى الله لنصرتك على الملوك والأمم .

فقال الإسكندر : ياسيدى ، اغفر لعبدك فقد أخطأت ، وإن كنت لا تشاء أن أسير فى طريقى فإنى أعود إلى بلادى .

فقال له : أمّا وقد استغفرت من مآثمك فلا ترجع ، وإذا وصلت إلى أورشليم ورأيت رجلاً على صورتى ، فانزل عن فرسك واسجد له ، واقبل جميع ما يأمر بك به .

فمضى الإسكندر فى طريقه إلى أورشليم ، ولما وصل إليها قابله كاهنها

على صورة ذلك الملاك ، فنزل عن فرسه وسجد له وسلم عليه وعظمه ، وحمل إلى بيت الله مالا كثيرا ، ثم سأل الكاهن أن يتوسل إلى الله فيما عزم عليه من محاربة دارا ملك الفرس ، فقال له : أيها الملك ، إمض في طريقك فإن الله معك ، وهو يظفرك بدارا ومملكته . فسار الإسكندر بعد هذا فتوجه إلى ملك أقاليم الدنيا السبعة (١) .

فالإسكندر عند اليهود كان ملكا يشبه أن يكون نبيا ، وقد جاب الدنيا شرقا وغربا حتى ملك أقاليمها السبعة ، فإذا كان الأستاذ الدسوقي يعول على شهادتهم فهذه شهادة صريحة منهم في إيمان الإسكندر ، وهذا إقرار صريح منهم بأنه جاب الدنيا شرقا وغربا حتى ملك أقاليمها السبعة ، وحينئذ يكون هو المراد من سؤلهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، لأن صيغة سؤلهم لا تختلف في شيء عما يعتقدونه في أمره .

ولاشك أن الإسكندر لم يملك الأقاليم السبعة كما كانوا يعتقدون ، ولهذا لم يذكر القرآن في ذى القرنين أنه ملك الأرض كلها ، ويمكن أن يراد بملكه أقاليم الأرض ما كان من تفرده بالملك في عصره ، لأنه قهر أكثر ممالك الأرض ، فظهر ملكه فيها ظهورا قويا ، ولم يكن هناك ملك مثله يذكر معه .

ولا أنكر بعد هذا أن المؤرخين اختلفوا في ديانة الإسكندر اختلافا كبيرا ، وإنى أرى أن أسوأ رأى في ديانته لا يمنع أن يحمل عليه ذوالقرنين المذكور في القرآن ، لأنه كان فاتحا عظيما بقطع النظر عن ديانته ، وقد ابتداء التاريخ به عهدا جديدا في الأرض ، لأن فتوحه لم تكن كفتوح الملوك قبله ، إذ كانوا يدمرون البلاد ، ويهلكون العباد ، كما قال تعالى في الآية (٣٤) من سورة النمل (إن الملوك إذا

(١) تاريخ يوسيفوس ص ٢٦ — ٢٨ .

دخلوا قرية افسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذلة) أما الإسكندر فإنه كان كلما فتح بلاد أسس فيها وجدد . وبنى وشيد ، وهياً وسائل العمران ، وأحيا قلوب أهل البلدان . وكان يرمى بفتوحه إلى غرض لم يقصده فاتح قبله ، وهو أن يجعل من شعوب الأرض أمة واحدة ، لا فرق فيها بين شعب وشعب . وقد ألف بهذا بين الشعوب الأوربية والاسيوية ، وجمع بين بعضها وبعض . فعرف كل شعب منها ما عند الآخر من العلوم والأخلاق والمعادات ، ونشأ من هذا حضارة جديدة أرقى مما سبقها من الحضارات ، ومثل هذا يستحق التنويه بشأنه بقطع النظر عن ديانة صاحبه ، ولا شيء في أن ينوّه القرآن الكريم به .

هل رجع بنو إسرائيل إلى مصر

أنكر بعض العلماء ما ذكرته في العدد ٤٩٩ ، من مجلة الرسالة من أن بنى إسرائيل لم يرجعوا الى مصر بعد خروجهم منها مع موسى عليه السلام ، لأن جمهور المفسرين على خلاف ما ذكرته ، ولم يخالف فيه إلا قليل منهم ، لأنه عندهم هو الظاهر من قوله تعالى (ويستخلفكم فى الأرض) وقوله تعالى (قلنا من بعده بنى إسرائيل اسكنوا الأرض) وقوله تعالى (وأورثناها بنى إسرائيل) وقد أيد ما ذهب اليه جمهور المفسرين من ذلك بأنه اذا لم يرد فى التاريخ ما يؤيده فلا اعتداد به . وكذلك لا اعتداد بكتب اليهود التى لم يرد فيها ما يثبت رجوع بنى إسرائيل الى مصر ، لأن الكذب فيها كثير ، وفى القرآن الكريم كفاية عنها ، على أن الألوسى ذكر فى تفسيره أنه رأى فى بعض الكتب أن بنى إسرائيل رجعوا الى مصر ، ومكثوا فيها عشر سنين . وكذلك ذكر صاحب كتاب الأصول البشرية أن موسى بعد أن هزم فرعون الذى فر الى بلاد الحبشة حكم مصر ثلاث عشرة سنة . وكذلك ذكر صاحب المنار أن المؤرخ مانيتو أورد وثيقة طويلة جاء فيها أن موسى حكم مصر بعد فرعون ثلاثة عشر عاما .

وانى أرى أن دعوى أن ظاهر القرآن يفيد رجوع بنى إسرائيل الى مصر غير صحيحة ، لأن الله قد بين الأرض التى أورثها بنى إسرائيل فى الآيات السابقة . فقال تعالى (وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون

وقومهم وما كانوا يعرشون) فذكر هنا أن الأرض التي أورثها بني إسرائيل هي الأرض المقدسة ، وهي أرض فلسطين لا مصر ، لأنها هي الأرض التي قدسها الله تعالى في قوله (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم) وذكر أنه بارك فيها بقوله (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله) وهذا إلى أنه ذكر أنه دمر ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ، فلم يكن هناك ما يمتن بأنه أورثه بني إسرائيل .

وقد فصل الله تعالى في القرآن ما جرى لبني إسرائيل بعد مجاوزتهم البحر ، وكرره في سور كثيرة ، وذكر من ذلك أنه أمرهم بدخول الأرض المقدسة التي كتبها لهم ، فهابوا قتال أهلها ، وأنه جزأهم على هذا بضرب التيه عليهم ، فكشوا أربعين سنة يتيهون في صحراء سيناء ، حتى ذهب ذلك الجيل الذي نشأ على الضعف في أرض مصر ، وظهر جيل جديد ربى تربية حربية قوية ، وكان موسى قد مات في تلك المدة ، فقام فيهم خليفته يوشع ، وذهب بهم إلى الأرض المقدسة فامتتحها .

ولم يذكر الله تعالى فيما فصله وكرره من ذلك أن بنى إسرائيل رجعوا إلى مصر ، وامتلكوا أرضها وزرعها وجناتها ، وهو لو صح حادث عظيم ما كان الله تعالى يهمل تفصيل خبره ، على أنهم بعد أن عبروا البحر ظهر عليهم العجز والضعف ، ولم يمكنهم أن يذهبوا إلى فتح الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم ، فلا يعقل أن يقولوا في هذه الحال على فتح أرض مصر ، وهي أوسع رقعة من أرض فلسطين ، وأهلها أكثر عدداً من أهلها ، وهذا إلى أنهم كانوا في عقاب من الله تعالى بضرب التيه عليهم ، فكيف بفتح لهم أرض مصر في هذه الحال ، وكيف يمتن عليهم بزروعها وجناتها ، ومن يغضب الله عليه

لا يكون أهلاً لنعمته ومَنِّه ، بل يكون أهلاً لحرمانه وعقابه ، كما هي سنته في خلقه ، ولن تجد لسنة تبديلاً .

ولاشك بعد هذا في أن ظاهر القرآن الكريم ليس في هذا الموضوع على ما ذكره جمهور المفسرين ، وإنما هي غفلة ظاهرة عما تفيد الآية السابقة من أن الأرض التي أورثها الله بني إسرائيل هي الأرض المقدسة ، وليست هي أرض مصر .

وهذا هو الذي يوافق المعروف الآن من تاريخ مصر القديم ، وقد اتسع العلم به ، ووضحت الكشوف الأثرية والتاريخية كثيراً من أمره ، فصار بحيث يصح الاعتماد عليه في ذلك ، وينبغي النزول فيه على حكمه .

وهو كذلك يوافق المعروف من تاريخ بني إسرائيل ، ولا يصح الطعن على المعروف من أخبارهم إلا إذا دعت إليه ضرورة شديدة ، ولا ضرورة تدعو هنا إلى مخالفته ، وتحوجنا إلى الطعن فيه .

أما تلك الروايات الضعيفة التي ذكرت في المنار وغيره فلا يصح الاعتماد عليها ، ولا يصح أن يفسر القرآن الكريم بها ، وهي روايات مبتورة لا تبين لنا كيف ملك موسى مصر ، ولا كيف تركها بعد أن تمكن من ملكها ، ومثل هذا لا يصح أن يعول عليه ، وإنما يعول على الروايات المحققة ، ويعتمد على الأخبار المفصلة .

الفن القصصى فى القرآن

ألف الأستاذ محمد خلف الله رسالة بهذا الاسم (الفن القصصى فى القرآن) لياخذ بها شهادة عالية من كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، فأثارت فتنة دينية بين الناس ، وأخذ بعضهم يتهمة فى دينه وعقيدته . ويحكم بكفره وإلحاده . ومثل هذا ليس من الجدال الكريم الذى أمرنا القرآن به فى شيء ، وليس من الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة التى أمرنا بها فيه أيضاً ، وكثير من الناس فى عصرنا يذهب مذاهب يشير بها مثل هذه الفتنة بين الناس ليرموه بالكفر والإلحاد ، فيظهر باسم العالم الحر الذى لا يتقيّد بالتقاليد ، ويمثل بيننا ما مثله غاليلو وغيره من فلاسفة أوروبا ، فقد اضطهدهم رجال الكنيسة فيها على بعض آرائهم ، فتألوا بهذا من الشهرة العلمية ما تألوا ، وصاروا قادة الفكر الحر فى هذا العصر .

فلنقتصر على تخطئة من يذهب به عندنا حب الشهرة الى الشطط فى الرأى ، ولنبخل عليه بما يريد من رمية بالإلحاد والكفر ، حتى لا نمكّنه من أن يظهر بين الناس بما يحب ، أو يجعل نفسه ضحية من ضحايا الرأى ، فليس أوجع فى نفسه من أن نأخذه فى رفق لنبيين خطأه للناس ، ونأتيه بالدليل الذى يأخذ بناصيته الى الاعتراف بالخطأ ، أو الظهور بين الناس بمظهر المعاند المتعنت . فلا ينال منهم ما يريد من الشهرة العلمية ، ولا يظفر منهم بعطف عليه أو تقدير لرأيه .

لقد رفع الأستاذ أحمد أمين تقريراً الى عميد كلية الآداب فى شأن تلك الرسالة ، وقد نشر هذا التقرير فى العدد ٧٤٤ ، من مجلة الرسالة .

الغراء . وسأخذ صاحب تلك الرسالة بما جاء في هذا التقرير ، لأن رسالته لاتزال مخطوطة ، فلم يمكنني الاطلاع عليها ، وقد صار ما جاء في هذا التقرير حجة عليه ، لأنه سكت عنه ولم يرد ما نسب فيه إليه .

لقد ذكر الأستاذ أحمد أمين في هذا التقرير أن صاحب تلك الرسالة يرى أن القصة في القرآن لاتلتزم الصدق التاريخي ، وإنما تتجه كما يتجه الأديب في تصوير الحادثة تصويراً فنياً ، بدليل التناقض في رواية الخبر الواحد ، مثل أن البشري كانت لإبراهيم أو لامرأته . ثم رأى الأستاذ أحمد أمين أن مثل هذا وغيره في تلك الرسالة مما يثير الجمهور ، وهذا قد يعد منه تهرباً عن إبداء الرأي الصريح في تلك الرسالة ، وما كان لمثله من الجامعيين أن يجعل لثورة الجمهور وزناً في الحكم على رسالة جامعية ، لأن الجامعات يجب أن يكون الحكم فيها خاصة الناس ، ولا يصح أن يقام فيها وزن لثورة غيرهم .

ولا شك أن دعوى التناقض في البشري بالغلام لإبراهيم وامرأته تدل على أن صاحب الرسالة لا يعرف تعريف التناقض ، ، ومن لا يعرف تعريف التناقض يكون في طور الطفولة العلمية ، ولا يصح له أن يطفر الى الكتابة في أمور لم يكن يكتب فيها إلا فحول العلماء ، كابن جرير الطبري ، وجار الله الزمخشري . وخر الدين الرازي .

فالبشري بالغلام كانت لإبراهيم في الآية . ٥٣ ، من سورة الحجر . (فبشّرناه بغلامٍ عَلِيمٍ) وفي الآية ١٠١ ، من سورة الصافات (فبشّرناه بغلامٍ حليم) وكانت لامرأته في الآية ٧١ ، من سورة هود (وامرأتُهُ قائِمةٌ فضحكنا فبشّرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) .

ومثل هذا ليس في شيء من التناقض ، لأن التناقض اختلاف قضيتين في الإيجاب والسلب اختلافا يلزم لذاته من صدق إحدى القضيتين كذب الأخرى . فلا بُد فيه من الاختلاف في الإيجاب والسلب ، ولا بد فيه من الاتحاد في الموضوع والمحمول وقيودهما ، وليس في قصة البشرى بالغلام اختلاف في الإيجاب والسلب ، بل جاءت البشرى به في قضيتين موجبتين ، وليس في القضيتين اتحاد في قيود الموضوع والمحمول أيضاً ، ومثل هذا ضروري أيضاً في تحقق التناقض .

والحق أن القرآن فيه قصص نصّ على وقوعها ، فيلزم فيها الصدق التاريخي ، وفيه قصص جرت مجرى الأمثال ، فيجوز فيها الوقوع وعدمه ، وليس فيه شيء من الأساطير التي ادعى صاحب تلك الرسالة أن فيه شيئاً منها . لأن الأساطير من الخرافات الوثنية التي تنسب إلى آلهتها وأبطالها ، فهي أخبار باطلة ، وأكاذيب ليس فيها فائدة .

فمن القصص التي نص القرآن على وقوعها قصة ولادة مريم ، فقد قصها القرآن في سورة آل عمران ، ثم ختمها بهذه الآية (٤٤ ، ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) فنص فيها على وقوع هذه القصة ، فلا يصح أن يقال فيها إنه لا يلزم صدقها التاريخي .

ومن القصص التي تجرى مجرى الأمثال قوله تعالى في الآية (٧٥) ، من سورة النحل (ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدرُ على شيءٍ ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو يشفقُ منه سرا وجهراً أهلاً

يستؤمنون الحمد لله جل اكثرتهم لا يعلمون (فهذا مثل لا يلزم وقوعه ، وإنما يساق للعظة والعبرة ، وهو مثل صادق من هذه الناحية ، وهذا هو الفرق بينه وبين الأسطورة ، لأن الأسطورة خبر وثني باطل ليس فيه فائدة .

وقد أتى صاحب تلك الرسالة من جهة أنه لم يعرف الفرق بين القصة والمثل والأسطورة ، ولو أنه عرف الفرق بينها لم يذهب إلى أن القصة القرآنية لا يلزم فيها الصدق التاريخي .

وقد كان لهذا النقد أثره في نفس صاحب رسالة الفن القصصي في القرآن ، فأتى بها إلى لأطالعها وأبين له رأي فيها ، فطالعتها وبيّنت له رأيي في بعض مواضعها ، وقد طبعها أخيراً ، ولكنني لم أطلعها بعد .

هل فى القرآن أسلوب غير عربى ؟

قال الله تعالى فى أول سورة يوسف (أَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّكَ عَلَىٰ آلِهَةٍ مُّبِينٍ ، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) وقال تعالى فى الآية ١٠٣ ، من سورة النحل (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ) إلى غير هذا من الآيات التى تفيد أن القرآن نزل كتابا عربيا فى لفظه وأسلوبه ، لأنه أنزل على رسول من العرب ، وكل رسول يبعث بلسان قومه ، كما قال تعالى فى الآية ١٤٠ ، من سورة إبراهيم (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .

وقد اختلف علماءنا قديما فى وقوع المعرب فى القرآن ، وهو ألفاظ مفردة منقولة من الفارسية والحبشية وغيرها ، مثل لفظ إستبرق ونحوه من الألفاظ المنقولة إلى العربية من هذه اللغات ، فذهب بعض العلماء إلى أنها ألفاظ عربية ، لأن القرآن لا يقع فيه إلا عربى ، وهم يرون أن ورود هذه الألفاظ فى غير العربية لا يدل على أنها غير عربية ، لأنه من باب توافق اللغات .

وذهب بعض العلماء إلى أن هذه الألفاظ غير عربية ، وإلى أن ورودها فى القرآن لا يقدر فى كونه عربيا ، لأنها أولا ألفاظ نادرة لا تكاد تذكر فى القرآن ، ولأنها ثانيا لا ترجع إلى الأسلوب ، والذى يؤثر فى عربية القرآن ما يرجع إلى أسلوبه ولو كان نادرا .

ولكنني وجدت في حاشية الخضري على شرح ابن عقيل لآلية ابن مالك في النحو ما يفيد أنه قد يقع في القرآن أسلوب غير عربي ، لأنه ذكر أن قوله تعالى في الآية ٧٨ ، من سورة الأنعام (فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربّي) يجوز أن يكون وضع اسم الإشارة للمذكر فيه موضع اسم الإشارة للمؤنث لأن لغة إبراهيم لا تفرق بينهما ، فيكون أسلوبها في هذا غير أسلوب اللغة العربية ، وبهذا يكون القرآن جرى في ذلك على أسلوبها ، فأشار الى الشمس وهي مؤنثة باسم الإشارة الموضوع في اللغة العربية للمذكر .

وإنني أرى أن مثل هذا لا يصح أن يقع في القرآن ، لأن مخالفة الأسلوب العربي تدخل في باب الخطأ ، والقرآن لا يصح أن يقع خطأ فيه ، ولا يصح أن يقاس على وقوع المعرّب في القرآن ، لأن وقوع المعرب لا يتعدى إيثار لفظة غير عربية لأنها أخف من العربية ، أو لأنه لا يوجد لها مرادف في لغة العرب ، ومثل هذا لا يدخل في باب الخطأ .

والحق أن تذكير اسم الإشارة في الآية يجوز أن يكون لتذكير خبرها ، ويجوز أن يكون لأن الشمس كوكب من السكواكب فافظها مؤنث ومعناها مذكر ، فذكر اسم الإشارة في الآية مراعاة لتذكير معناها ، وإذا صح هذا لم يحز أن نتكلف حمله على غير لغة العرب ؟

الرواية الإسلامية في عدد أصحاب الكهف

ذكر الأستاذ زكي مبارك في العدد (٣٩١) من مجلة الرسالة أنه بمراجعة التفاسير في قوله تعالى في الآية ٢٢ ، من سورة الكهف (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل) يعرف أن أصحاب القول الأول هم اليهود ، وأصحاب القول الثاني هم النصارى . وأصحاب القول الثالث هم المسلمون ، فيكون عددهم عند اليهود أربعة بإضافة كلبهم إليهم ، وعند النصارى ستة بإضافة كلبهم إليهم ، وعند المسلمين ثمانية بإضافة كلبهم إليهم .

ولست أدري علام استند الأستاذ زكي مبارك في توزيع هذه الأقوال على اليهود والنصارى والمسلمين ؟ لأن الآية ليس فيها شيء من هذا التوزيع ، بل هي ظاهرة في أن الأقوال الثلاثة لأهل الكتاب لا للمسلمين ، فهم الذين اختلفوا في أن عددهم أربعة أو ستة أو ثمانية بإضافة كلبهم إليهم ، وقد نهي النبي صلى الله عليه وسلم في الآية أن يماريهم في خلافهم وراء ظاهر آ ، بأن يرجع العلم بتعيين عددهم على التحقيق إلى الله تعالى ، لأنه إذا عين لهم عددا لم يسلموه له ، ولم يقطع نزاعهم فيه ، فلا يكون هناك أولى من أن يجيبهم بإرجاع العلم بعددهم إلى الله تعالى ، وهو في هذا يفيدهم بأن تعيين عددهم لا يدخل في شأنه ، ولا يهم في المقصود من القصة ، لأنها إنما تساق في القرآن للعتة والعبرة ، ولا تساق لفائدة تاريخية ، كما هو الشأن في كل ما جاء في

القرآن من القصص ، والعظة حاصلة من هذه القصة بقطع النظر عن كون عدد أصحابها أربعة أو ستة أو ثمانية .

ولا أنكر أن بعض المفسرين يرجح أن أصحاب الكهف كانوا ثمانية بإضافة كلهم اليهم ، وسنده في هذا الترجيح زيادة الواو في قوله (وثامنهم كلهم) لأنه لم يقل قبلها (ورابعهم وسادسهم) ولكن هذه الواو إذا سلم أنها تدل على هذا فإنما تدل عليه عند الذين حكى الله تعالى هذا القول عنهم ، فهم الذين يزيدون هذه الواو في تعيينهم لعددهم ، والله سبحانه وتعالى يحكى قوْلهم ، ولم يرد في الآية ما يفيد ترجيحه لهذا القول ، وإنما ورد فيها نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تعيين عددهم ، وأمره بأن يخبرهم بأن علم عددهم من الغيب الذى استأثر الله بعلمه ، وعلمه عنه قليل من خلقه ، والظاهر من هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم عددهم ، ولكنه لم يشأ أن يخبرهم به ، لأنهم يردونه عليه ويتمسكون بقوْلهم ، فلا يكون هناك فائدة من تعيينه لهم .

موسى عبرى أو مصرى

نقلت مجلة الرسالة فى العدد (٣٨٣) عن الأستاذ فرويد أنه يذهب إلى أن موسى عليه السلام كان مصرىً لا عبرياً ، ولا شك أن هذا يخالف ما اتفقت عليه الكتب الثلاثة المقدسة (التوراة والإنجيل والقرآن) وهى كتب لها قيمتها من الوجهة الدينية والتاريخية ، وكثير من المؤرخين يعتمد على التوراة فى التاريخ القديم ، ويعدها أهم مصدر لهذا التاريخ ، بل يعتمدون عليها فى تقسيم الأجناس البشرية إلى ساميين وحاميين وآريين ، وهو أساس علم الأنساب ، فلا يصح لمن لا يؤمن بهذه الكتب الثلاثة من الناحية الدينية أن يخالفها إلا بدليل قاطع ، لأن الدليل الظنى لا يقبل فى العلم ، فكيف إذا خالف نصاً دينياً له قيمته من الوجهة الدينية والوجهة التاريخية .

والأستاذ فرويد لم يعتمد فى تأييد مذهبه فى أن موسى كان مصرىاً لا عبرياً إلا على أن كلمة موسى مصرية قديمة بمعنى عبد ، كما وردت فى كلمة (تخوتس) بمعنى عبد تخوت ، وكان تخوت إلهاً من آلهة المصريين ، وإذا كانت كلمة موسى مصرية فإن صاحبها يكون مصرىاً .

ولا شك أن هذا الدليل لا يفيد أن موسى كان مصرىاً لا عبرياً ، لأنه لا يلزم من كون اسم شخص مصرىاً أن يكون صاحبه مصرىاً ، لأن الأسماء كثيراً ما تتشابه فى اللغات ، ولا سيما أن موسى وقومه كانوا يعيشون فى عصره بين المصريين ، وكانوا بينهم قلة لا تذكر ، ولا شك أن القلة تقلد الكثرة فى أسمائها ، ولا يلزم من تقليدها لها فى ذلك أن تكون من صميمها ، ولو أن الأستاذ فرويد يعيش بيننا

في مصر لشاهد ان فيها كثيرا من اليهود العبريين يعيشون بين المصريين كما كان يعيش أسلافهم بينهم ، ويقلدونهم في أسمائهم العربية ، كما كان أسلافهم يقلدونهم في أسمائهم المصرية القديمة ، واليهود مع هذا عبريون لامصريون ، كما كان أسلافهم عبريين لامصريين .

على أنه قد ورد في اشتقاق كلمة موسى رأى آخر يخالف رأى الأستاذ فرويد ، وهو أنها اسم سرياني مركب من كلمتين (مو ، شا) ومواسم للماء في اللغة المصرية القديمة ، وشا بمعنى الشجر ، وقد سمي بهذا لأنه وجد حينما ألقته أمه في البحر بين ماء وشجر ، ولا شك أن هذا الرأي صريح في أن كلمة موسى ليست كلمة واحدة بمعنى عبد كما ذكر الأستاذ فرويد ، وقد قيل إن كلمة عبد يطلق عليها في اللغة المصرية القديمة لفظ باك ، مثل (باك إن أمون) أى عبد الإله أمون ، وقد يجوز أن يدل عليها بكلمتين مترادفتين في اللغة المصرية القديمة ، ولكن هذا أيضا له أثره في ضعف ما ذهب إليه الأستاذ فرويد ، فلا يصح أن يؤثر على ماورد في كتبنا السماوية .

وأد البنات عند العرب

قال الله تعالى في الآية ١٥١ ، من سورة الأنعام (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم) وقال تعالى في الآية ٣١ ، من سورة الإسراء (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً) وقد وردت هاتان الآيتان فيما ورد من القرآن في وأد العرب لبناتهم ، والسكنهما يمتازان على غيرهما بأنهما يبينان السبب الذي كان يدفعهم إلى وأد بناتهم ، وهو عجز فقرائهم عن الإنفاق عليهن ، وخشية أغنيائهم الفقراء منهن ، وهناك سبب آخر لم يذكره القرآن في وأدهن ، وهو غيرتهم على أعراض البنات ، كما حصل في قصة قيس بن عاصم .

ولكن الأستاذ علي عبدالواحد وافي يرى أن وأد البنات لم يكن يرجع إلى شيء من هذا ، وإنما كان يرجع إلى أن بعض العرب كانوا يعتقدون في البنات أنهن من خلق إله اليهود ، وكانوا ينظرون إليه نظرة كمنظرتنا الآن إلى الشيطان ، وكانوا يعتقدون في الذكور أنهم من خلق آلهتهم ، ولهذا كانوا يعتقدون في البنات أنهن رجس يجب التخلص منه بالقتل ، وقد استدلل على هذا بقوله تعالى في الآيات ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، من سورة النحل (ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم تالله لتسألن عما كنتم تفترون) ، ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ، وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون) فجعل الضمير

المجورور في قوله (ولهم) عائداً إلى اسم الموصول في قوله (لما لا يعلمون) وهو واقع على آلهتهم ، وجعل المراد من البنات إناث البشر .

والحقيقة أن الضمير في قوله (ولهم ما يشتهون) عائداً إليهم لا إلى آلهتهم ، وأن المراد من البنات الملائكة الذين كانوا يعتقدون فيهم أنهم بنات الله ، وقد ورد هذا صريحاً في آيات أخرى نزلت فيما نزلت فيه الآيات السابقة ، ومنها قوله تعالى في الآيات ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، من سورة الزخرف (وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين ، أم اتخذ ما يخلق بنات وأصفاً كم بالبنين ، وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمان مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستنكتب شهادتهم ويسألون) فالذين جعلوهم هنا جزءاً الله هم البنات في الآيات السابقة من سورة النحل ، لأنهم جعلوهم أولاداً لله والولد جزء من أبيه ، والمراد بهن الملائكة لا إناث البشر ، ويؤيد هذا قوله بعده (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً) ثم إنه قال هنا (وأصفاً كم بالبنين) وهو نظير قوله في آيات سورة النحل (ولهم ما يشتهون) والضمير هنا عائداً قطعاً إليهم لا إلى آلهتهم ، فيكون ضمير (ولهم) عائداً كذلك إليهم ، وبهذا ينهار الأساس الذي بنى عليه الاستاذ على وافي مذهبه في وأد العرب البنات .

ومن الآيات الواردة أيضاً في ذلك قوله تعالى في الآية ٤٠ ، من سورة الإسراء (أفأصفاً كم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لتقولون قولاً عظيماً) وهذا أصرح مما سبق في أنهم يجعلون البنين لأنفسهم لا لآلهتهم ، وفي أن الإناث اللاتي يجعلوهن لله هن الملائكة لا إناث البشر .

وبهذا يثبت أن الاحتمال الذي ذكره الأستاذ على وافي في قوله (ولهم ما يشتهون) من عود الضمير فيه إلى آلهتهم لا يوافق ما ورد في نظير مما سبق ، إذ يعود الضمير فيه إليهم لا إلى آلهتهم ، وحينئذ لا يكفي ذلك الاحتمال البعيد في إثبات ذلك المذهب الجديد في وأد العرب البنات ، بل لا بُدَّ له من سند آخر يؤيده ، كخبر من أخبار العرب في جاهليتهم ، أو نحو هذا مما يثبت أن بعض العرب كانوا ينظرون في جاهليتهم إلى إله اليهود كنظرتنا الآن إلى الشيطان ، وأنهم كانوا ينسبون إليه إناث البشر ، وينسبون الذكور إلى آلهتهم ، وأنهم كانوا يعتقدون أن البنات رجس يجب التخلص منه بالقتل من أجل نسبتهن إلى إله اليهود ، فهذا كله لا يثبت بمثل ذلك الاحتمال البعيد ، بل يجب أن ترد به أخبار عن العرب في جاهليتهم ، ولا يصح أن يختفي مثله بين أخبارهم إلى أن يأتي الأستاذ على وافي فيثبته بذلك الاحتمال البعيد .

على أن الآيات السابقة في سورة الزخرف قد قال الله قبلها في الآية ٩ ، (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولنَّ خلقهنَّ العزيزُ العليمُ) ثم ساق الآيات بعدها إلى أن ذكر تلك الآيات التي نسب إليهم فيها وأد البنات ، وبمقتضى هذا السياق يكون الذين إذا سئلوا عن خلق السماوات والأرض يقولون خلقهن العزيز العليم هم الذين كانوا يبدون بناتهم ، وحينئذ لا يكون نظرهم إلى الله كنظرهم إلى الشيطان ، بل يكون نظرهم إليه نظر تقديس وتعظيم .

وهذا كله إلى أنه لو كان بعض العرب يبدون بناتهم لمثل ما ذكره الأستاذ على وافي لكان وأدهن عندهم يرجع إلى عقيدة دينية ، فكانوا يبدون كل بناتهم ، ومثل هذا لا تفعله قبيلة من القبائل ، لأنه يؤدي

إلى انقراضها ، أو إلى إضعافها على الأقل بين غيرها من القبائل العربية ، وقد كانت قبائل تعيش في حروب دائمة لا تنقطع ، فكل قبيلة منها كانت في حاجة إلى تكثير عدد أفرادها ، والبعد عما يقتل من عددهم ، فلم يكن الوأد على هذا يرجع إلى عقيدة دينية ، وإنما كان يرجع إلى عوامل اجتماعية في بعض أفراد من بعض القبائل ، كخوف الفقر من بعضهم ، وكعجز بعضهم عن نفقة البنات لفقره ، وكخوف بعضهم من عارهن أو سبهن ، ومثل هذا لا يفعله في العادة إلا شواذ منهم .

الفنون الجميلة في القرآن

يخطيء من يظن أن دين الله تعالى زهد محض ، وتكشف بحت ، ورهبانية لا تعنى بزينة الدنيا وزخرفها ، وتصوف لا يرى إلا لبس الخشن من الثياب ، فلو صح هذا لم يكن دين الله تعالى عاما صالحا لكل الناس على اختلاف طبائعهم ، وتباين مشاربهم ، بل يكون خاصا بطائفة منهم دون غيرها من الطوائف ، وهى الطائفة التى تؤثر الزهد فى الدنيا ، وتقدم التقشف فيها على التمتع ، وليس كذلك دين الله تعالى ، بل هو عام لكل طوائف البشر ، ولا إصر فيه ولا حرج على طائفة منهم ، ولهذا جعل الزهد فى الدنيا مباحا لمن يريد من الناس ، ولم يجعله مندوبا أو فرضا عليهم ، وأحل التمتع بطيبات الدنيا لمن يريد من الناس ، ولم يجعلها مكروهة أو محرمة عليهم ، حتى لا يكون فيه حرج على أحد فى هذه الحياة ، ولا تضيق به طائفة من طوائف الناس ، وتسير به الحياة فى طريق صالح لا تفريط فيه ولا إفراط .

وقد جاء ذكر كثير من الفنون الجميلة فى القرآن الكريم ، كالبناء والنحت والتصوير والغناء وغيرها من الفنون الجميلة ، فلم يخرج فيها عما جاء به من رفع الإصر والحرج عن الناس ، ولم ينظر إليها بعين أهل الزهد والتقشف ، بل نظر إليها فى ذاتها ، حتى لا يغلو فى أمرها ، ولا يحيد عن الأساس الذى قام عليه تشريعه ، فذكر ازدهار بعض تلك الفنون فى بعض ما أنزل من الشرائع ، وأقام فيها من الملك ، وحكى هذا فى أسلوب ينوّه بعظمتها ، ويشيد بذكرها ، ويدل على مقدار ما وصلت إليه من الروعة ، وما بلغت من الجمال ، حتى كانت

آية في الإبداع ، ومعجزة من معجزات الفن ، ومفخرة باقية على الدهر .

فذكر ما ازدهر من فن الغناء في عهد داود عليه السلام ، وقد بلغ هذا النبي من حسن الغناء ما بلغ ، حتى ضرب بحسن نغمته المثل ، فيقال - نغمة داود - مثلاً في طيب الصوت ، وقد أشار الله تعالى إلى هذا في الآية ١٠٠ ، من سورة سبأ (ولقد آتينا داود منّا فضلاً يا جبال أوّس معه والطير) فكان عليه السلام إذا قام في محرابه يقرأ الزبور عكفت عليه الوحش والطير تصغي إليه ، وكان له من أمير أيضاً ضرب بها المثل ، فيقال - من أمير داود - لأنه فيما قبل كان له من أمير يزمر بها إذا قرأ الزبور ، وكان إذا زمر بها اجتمع عليه الإنس والجن والوحش والطير فأبكى من حوله ، وقال المبرد : من أمير آل داود كأنها ألحانهم وأغانيهم . وقال غيره : إن طيب صوته ونغمته شبّها بالمزامير ، ولا مزامير ولا معازف هناك .

ثم جاء سليمان عليه السلام بعد أبيه داود ، فذكر القرآن ما ازدهر في عهده من فنون البناء والنحت والتصوير ، إذ وصلت فيه إلى أوج عظمتها ، وأربت على ما وصلت إليه عند الأمم المتحضرة القديمة ، وقد ظهرت آثارها العظيمة فيما شيد سليمان من المساجد والقصور ، وأنشأ من المدن والحصون ، وإلى هذا يشير الله تعالى في الآيتين ١٢ و ١٣ ، من سورة سبأ (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقنه من عذاب السعير ، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعماؤ آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور) .

وكان بيت المقدس اعظم ما تجلت فيه وآثار تلك الفن، إذ تبارى في زينت النابغون فيها، وأبدعوا فيما أقاموه من فنه في بنائه وتشيده، وكان داود عليه السلام قد ابتداء بناءه ، فلما آل ملكه إلى ابنه سليمان عليه السلام مضى في إتمام ما ابتدأه أبوه من ذلك البيت العظيم، وعمل على أن يكون في عصره آية من آيات الفنون الجميلة ، ومعجزة من معجزات فنون البناء والنحت والتصوير ، فجمع له النابغين في هذه الفنون من مملكته وما يجاورها من الممالك ، وعهد إلى كل طائفة منهم بما نبغت فيه منها ، وأحضر الرخام والبلور من أماكنهما ، وأمر ببناء المدينة أولاً بالرخام والصفائح ، لتلائم ذلك البيت الذي يريد أن يبدع بناءه ، فيكون منها واسطة العقد ، وقلادة الجيد ، وقد جعلها اثني عشر ربضاً ، وأنزل في كل ربض سبطاً من أسباط بني إسرائيل .

ثم شرع في تشييد ذلك البيت العظيم ، فأحضر الذهب والفضة واليواقيت والدُّرَّ الصافي والمسك والعنبر والطيب ، وأتى من ذلك بشيء كثير لا يحصى ولا يعد ، وكان له سفن كثيرة تشق البحار شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً ، فأحضرت له ما أراد من ذلك كله، ثم أحضر المهرة من الصناعات ، وأمرهم أن ينحتوا تلك الأحجار ويجعلوها ألواحاً وأن يصلحوا الجواهر ، ويثقبوا اليواقيت والآلئ ، فبنى ذلك البيت بالرخام الأبيض والأخضر والأصفر ، وعمَّده بأساطين البلور الصافي ، وسقفه بأنواع الجواهر الثينة ، وفصص سقوفه وحيطانه بالآلئ واليواقيت وسائر الجواهر ، وبسط أرضه بالواح الفيروزج ، فلم يكن على وجه الأرض بيت أبهى ولا أنور من ذلك البيت ، حتى كان يضيء في الظلمة كالقمر ليلة البدر .

وقد زاد في زينة ذلك البيت ما نقش فيه من الصور الجميلة، وما أقيم

فيه من التماثيل البديعة ، وكان بعضها مصنوعاً من النحاس ، وبعضها مصنوعاً من الرخام ، وبعضها مصنوعاً من الزجاج ، وكان منها ما يمثل صور الملائكة ، ومنها ما يمثل صور الأنبياء ، ومنها ما يمثل صور الصالحين ، ومنها ما يمثل صور السباع والطيور ونحوها ، وكان من أبداع تلك التماثيل أسدان كانا موضوعين تحت كرسي سليمان عليه السلام ، ونسران كانا موضوعين فوقه ، فإذا أراد أن يصعد بسط له الأسدان ذراعيهما ، وإذا جلس على كرسيه أظله النسران بأجنحتهما .

ومن أبداع ما بناه سليمان من القصور الصرح الذي شيده لبلقيس ملكة سبأ ، وقد نوه القرآن بشأنه في الآية « ٤٤ » ، من سورة النمل (قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبتها رجّة وكشفت عن ساقها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) .

فهذا الصرح كان آية أيضاً من آيات الفنون الجميلة ، وفيه أكبر دلالة على أنها بلغت في عهد سليمان مبلغاً عظيماً ، فقد أبداع فيه سليمان ليظهر لبلقيس عظمة ماكه ، ويطلعها على ما أولاه الله تعالى من نعمه ، فأقامه من الزجاج الذي يضاهي السماء في لونه ، ثم أجرى الماء تحته ، وألقى فيه من السمك والضفادع وغيرها من أنواع الحيوان التي تسكن الماء ، ثم وضع سريره في صدر المجلس وجلس عليه ، فلما أقبلت بلقيس لتدخل عليه في ذلك الصرح ، حسبته رجّة أي ماء عظيماً ، فبكشفت عن ساقها لتخوضه إلى سليمان في صدر المجلس ، فأخبرها بأنه صرح ممرد من قوارير ، فعادت فسترت ساقها ، وسارت حتى وصلت إليه ، فعجبت من ذلك الصرح كل العجب ، وأدركت فضل ما حبا الله سليمان من الملك ، فأمنت بأن ملكه من الله تعالى ، وأسلمت لله رب العالمين .

وكان عثمان بن عفان أول من عنى بتلك الفنون في الإسلام ،
فاهتم في خلافته بتشديد مسجد المدينة ، فهدمه وبناء بالجص والحجارة ،
وأحضر له مهرة البنائين من مصر وغيرها من المملكة الإسلامية التي
اتسعت في عهده ، وصارت من العظمة بحيث لا يليق بها أن يبقى مسجد
عاصمتها على ما كان عليه قبله ، وقد أتى بعده الوليد بن عبد الملك فأرسل
إلى عمر بن عبد العزيز وكان عاملاً له على المدينة ، فأمره أن يزيد
في ذلك المسجد شرقاً وغرباً وجنوباً . وبني له أربع مآذن ، وفرش
أرضه بالرخام ، ووشى جدرانها بالفسيفساء ، وكسا سقفه بالذهب ،
وجعل أساطينه من المرمر .

وقد أباح عثمان بن عفان لأهل المدينة أن يتوسعوا في البناء ،
فشيدوا فيها القصور ، وأبدعوا في بنائها وتشيدوها ، وكان هذا كله من
ضمن ما أخذه عليه المتنطعون في الدين ، وأرادوا به خلعه من الخلافة ، وقد
نقل العتبي في كتاب اليميني عن رسالة البُستيّ^١ في الترجيح بين الصحابة
أن عثمان كان أول من بدل إمارة المسلمين من زى^٢ النسك إلى زينة الملك ،
فعد هذا من مثالبه ، مع أنه مفخرة من مفاخره ، لأن دولة المسلمين
لا يصح أن تبقى دائماً على مظاهر الخشونة والبداوة ، بل يجب أن تظهر
عليها آثار الحضارة إذا أقبلت الدنيا عليها ، لأن هذا يكون أدعى إلى
هيبتها بين الدول ، وهو من حسن السياسة التي يدعو الدين والعقل إليها
وما كان للديانات السماوية أن تقف من الفنون الجميلة غير هذا
الموقف ، لأن لها فائدتها من تهذيب الطباع ، وإصلاح الآذواق ،
وترقيق النفوس ، فلا يمكن أن ينكر فضلها دين من الأدباء ، ولا يصح
أن تنكر فائدتها شريعة من الشرائع .

تصحيح أسماء السور

في مصحف أبي بن كعب

جاء ترتيب مصحف أبي بن كعب الانصاري في ثلاث كتب: أولها كتاب الفهرست لابن النديم، وثانيها في كتاب الإتيقان للسيوطي، وثالثها في كتاب تاريخ القرآن لأبي عبد الله الزنجاني من علماء الشيعة في عصرنا، وقد طبعته لجنة التأليف والترجمة والنشر في سنة ١٣٥٤هـ، وقد بدأه الأستاذ أحمد أمين بمقدمة تنوّه بشأنه، وتشيد بفضل مؤلفه، مع أنه محشو بأغلاط كثيرة تدل على أنه ينقصه كثير من التحقيق، وكان على الأستاذ أحمد أمين أن يتنبه إلى هذه الأغلاط، لأنه أقدر عليها من صاحب الكتاب، بفضل تربيته الدينية العربية، أما صاحب الكتاب فلغته فارسية، وقد يخفى عليه من هذا ما لا يخفى على الأستاذ أحمد أمين، ومن أهم هذه الأغلاط ما جاء في عدد سور القرآن وأسمائها وترتيبها في مصحف أبي بن كعب، فهي أغلاط لها خطورة دينية كبيرة، لأنها تفيد أن في هذا المصحف سور لم ترد في مصحف عثمان، وأن في مصحف عثمان سور لم ترد في هذا المصحف، ومثل هذا لما يتخذه أعداء القرآن للطعن عليه بأن فيه تحريفا بالزيادة والنقصان، فمن الواجب أن تبين تلك الأغلاط التي وقعت في ترتيب مصحف أبي بن كعب في كتاب تاريخ القرآن، ليتبين للناس أمرها، ويعرفوا أنه لا خلاف يذكر بين مصحف عثمان ومصحف أبي بن كعب في عدد سور وأسمائها.

وقد وقعت هذه الأغلط أولاً في كتاب الفهرست ، لأن فيه كثيراً من النقص والتحريف ، وكان لترتيب مصحف أبي بن كعب فيه حظ كبير منهما ، أما كتاب الإتيقان فلم يس فيه إلا قليل من النقص والتحريف في ترتيب ذلك المصحف ، وقد اعتمد كتاب تاريخ القرآن في ترتيب ذلك المصحف على كتاب الفهرست ، ولم يطلع صاحبه على ترتيبه في كتاب الإتيقان ، فوقع فيها وقع فيه من النقص والتحريف ، ولم يهتم إلى الصواب في أمره ، فازداد اضطراباً في ترتيب ذلك المصحف ، وأرنب فيه على كتاب الفهرست تحريفاً ونقصاً ، ولهذا يجب أولاً ذكر ترتيب ذلك المصحف في كتاب الفهرست ، لمتبع يذكر ترتيبه في كتاب تاريخ القرآن ، ثم يذكر ترتيبه في كتاب الإتيقان .

وهذا ما ذكره كتاب الفهرست في ترتيب ذلك المصحف : قال الفضل بن شاذان : أخبرنا الثقة من أصحابنا ، قال : كان تأليف السور في قراءة أبي بن كعب بالبصرة في قرية يقال لها قرية الأنصار ، على رأس فرسخين ، عند محمد بن عبد الملك الأنصاري ، أخرج إلينا مصحفاً وقال : هو مصحف أبي بن كعب ، روينا عن آبائنا . فنظرت فيه فاستخرجت أوائل السور وخواتيم الرسل^(١) وعدد الآي ، فأوله فاتحة الكتاب . البقرة . النساء . آل عمران . الأنعام . الأعراف . المائدة . الندى التبسته وهي يونس . الأنفال . التوبة . هود . مريم . الشعراء . الحج . يوسف . الكهف . النحل . الأحزاب . بني إسرائيل . الزمر . حم تنزيل . طه . الأنبياء . النور . المؤمنون . حم المؤمن . الرعد . طسم القصص . طس سليمان . الصافات . داود سورة ص . يس . أصحاب الحجر . حم عسق . الروم . الزخرف . حم السجدة .

(١) كلمة الرسل تحريف لم أهتم إلى أصله .

سورة ابراهيم . الملائكة . الفتح . محمد . الحديد . الظهار . تبارك
الفرقان . ألم تنزيل . نوح . الأحقاف . ق . الرحمان . الواقعة .
الجن . النجم . ن . الحاقة . الحشر . الممتحنة . المرسلات . عم
يتساءلون . الإنسان . لا أقسم . كورت . النازعات . عبس المطففين .
إذا السماء انشقت . التين . إقرأ باسم ربك . الحجرات . المنافقون .
الجمعة . النبي . الفجر . المملك . الليل إذا يغشى . إذا السماء انفطرت .
الشمس وضحاها . السماء ذات البروج . الطارق . سبح اسم ربك
الأعلى . الغاشية . عبس وهي أهل الكتاب لم يكن أول ما كان الذين
كفروا . الصف . الضحى . ألم نشرح لك . القارعة . التكاثر . الخلع
ثلاث آيات . الجيد ست آيات اللهم إياك نعبد وآخرها بالكفر
ملحق . الز . إذا زلزلت . العاديات . أصحاب الفيل . التين .
الكوثر . القدر . الكافرون . النصر . أبي لهب . قريش . الصمد .
الفلق . الناس . فذلك مائة وست عشرة سورة .

والنقط التي فصلت بها أسماء السور في هذا المصحف من وضعي ،
لا من وضع صاحب الفهرست ، لأنه أورد لها متلاصقة من غير أن
يفصل بينها بشيء ، ولكنها مع هذا لا تصل إلى العدد الذي ذكره ،
وهو مائة وست عشرة سورة ، لأنه لا يتجاوز على هذه الفواصل
التي وضعتها اثنتي عشرة سورة ، على ما فيه من تكرار بعض السور ،
كما سأبينه بعد .

والتحريف الأول في هذا الترتيب يقع في قوله (الذي التبسناه
وهي يونس) والتحريف الثاني في قوله (حم تنزيل) لأنه يصدق على
أربع سور (حم المؤمن وحم السجدة والأحقاف والجنات) وقد
ذكر الثلاث الأولى بعده ، فيتعين أن يكون المراد منه الجنات ، ولكن

دلالتها عليها فيها نقص ظاهر ، فلا بد أن يكون فيه تحريف أدى إلى هذا النقص ، والتحريف الثالث وقع في قوله (داود سورة ص) ولعل أصله (ص داود) على قياس قوله (طس سليمان) والتحريف الرابع وقع في قوله (عبس) وهي أهل الكتاب لم يكن أول ما كان الذين كفروا) فلا شك أنه يريد به سورة لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ، وتحريفه واضطرابه من الظهور بمكان ، والتحريف الخامس وقع في قوله (الجيد ست آيات) وهي الحفد لا الجيد ، والتحريف السادس وقع في قوله (اللز) وهي اللزة لا اللز ، لأنها وردت كذلك في قوله تعالى (وَيُنَالُ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لِمَزَةٍ) والتحريف السابع في قوله (لا أقسم) لأنه يصدق على سورتين (القيامة والبلد) لا على سورة واحدة ، والتحريف الثامن في قوله (النبي) لأنه يصدق على سورتين (الطلاق والتحريم) لا على سورة واحدة .

فأما سورة بنى إسرائيل في ذلك الترتيب فهي سورة الإسراء . وسورة طس سليمان هي سورة النمل . وسورة أصحاب الحجر هي سورة الحجر . وسورة الملائكة هي سورة فاطر . وسورة الظهار هي سورة المجادلة . وسورة أبي لهب هي سورة المسد . وسورة الصمد هي سورة الإخلاص . وأما سورتا الخلع والحفد فبِسُورَتَانِ زِيدَتَا فِي مَصْحَفِ أَبِي بَكْرٍ عَلَى مَصْحَفِ عُثْمَانَ . وسيأتى بيانهما . وأما سورة التين الثانية فهي سورة التين الأولى . ولعلها محرفة عن سورة أخرى .

وهذا هو ترتيب كتاب تاريخ القرآن لمصحف أبي بن كعب :

سور مصحف أبي بن كعب :

(١) فاتحة الكتاب	(٢١) طه	(٤٣) محمد
(٢) البقرة	(٢٢) الأنبياء	(٤٤) الحديد
(٣) النساء	(٢٣) النور	(٤٥) الظهر
(٤) آل عمران	(٢٤) المؤمنون	(٤٦) تبارك
(٥) الأنعام	(٢٥) حم المؤمن	(٤٧) الفرقان
(٦) الأعراف	(٢٦) الرعد	(٤٨) ألم تنزيل
(٧) المائدة الذي	(٢٧) طسم	(٤٩) نوح
التبسمه يونس	(٢٨) القصص	(٥٠) الأحقاف
	(٢٩) طس	(٥١) ق
(٨) الأنفال	(٣٠) سليمان	(٥٢) الرحمن
(٩) التوبة	(٣١) الصافات	(٥٣) الواقعة
(١٠) هود	(٣٢) داود	(٥٤) الجن
(١١) مريم	(٣٣) ص	(٥٥) النجم
(١٢) الشعراء	(٣٤) يس	(٥٦) ن
(١٣) الحج	(٣٥) أصحاب الحجر	(٥٧) الحاقة
(١٤) يوسف	(٣٦) حم عسق	(٥٨) الحشر
(١٥) الكهف	(٣٧) الروم	(٥٩) الممتحنة
(١٦) النحل	(٣٨) الزخرف	(٦٠) المرسلات
(١٧) الأحزاب	(٣٩) حم السجدة	(٦١) عم يتسام لون
(١٨) بني إسرائيل	(٤٠) إبراهيم	(٦٢) الإنسان
(١٩) الزمر	(٤١) الملائكة	(٦٣) لا أقسم
(٢٠) حم تنزيل	(٤٢) الفتح	(٦٤) كورت

والخسرها	(٧٩) الشمس وضحاها	(٦٥) النازعات
بالكفار	(٨٠) السماء ذات	(٦٦) عبس
ملحق للبر	البروج	(٦٧) المطففين
(٩٣) إذا زلزلت	(٨١) الطارق	(٦٨) إذا السماء
(٩٤) العاديات	(٨٢) سبح اسم ربك	انشقت
(٦٩) أصحاب الفيل	الأعلى	(٩٦) التين
(٩٥) التين	(٨٣) الغاشية	(٧٠) اقرأ بسم ربك
(٩٧) الكوثر	(٨٤) عبس	(٧١) الحجرات
(٩٨) القدر	(٨٥) الصف	(٧٢) المنافقون
(٩٩) الكافرون	(٨٦) الضحى	(٧٣) الجمعة
(١٠٠) النصر	(٨٧) ألم نشرح	(٧٤) النبي
(١٠١) أبي لهب	(٨٨) القارعة	(٧٥) الفجر
(١٠٢) قريش	(٨٩) التكاثر	(٧٦) الملك
(١٠٣) الصمد	(٩٠) الخلق	(٧٧) الليل إذا يغشى
(١٠٤) الفلق	(٩١) الجيد	(٧٨) إذا السماء
(١٠٥) الناس	(٩٢) اللهم إياك نعبد	انفطرت

والمأمل في الترتيب يرى أنه منقول بلفظه من ترتيب صاحب
الفهرست ، ولكنه تُصوِّرُ فيه بما زاده تحريفا على تحريفه ،
وأضاف إليه اضطرابا على اضطرابه ، فقد خرج من التحريف الأول
السابق بإسقاط سورة يونس من عدد سور القرآن ، وخرج من
التحريف الثاني بجعل (حم تنزيل) سورة لا يدري مدلولها من السور
الأربع التي تصدق عليها ، وخرج من التحريف الثالث بجعل (داود)
سورة و (ص) اسما لسورة أخرى ، فزاد في سور القرآن سورة سماها

سورة داود . وليس في القرآن سورة بهذا الاسم ، وإنما ذلك سورة واحدة هي (ص داود) فحرفت ذلك التحريف ، وخرج من التحريف الرابع بزيادة سورة عبس ثمانية ، مع أنه ليس في القرآن إلا سورة واحدة بهذا الاسم ، وخرج من التحريف الخامس والسادس بتركهما على حالهما وإضافة سورة المز (اللزة) إليهما ، فأسقط بهذا سورة معروفة من سور القرآن ، وهي المعروفة في مصحف عثمان باسم سورة الهمزة ، وخرج من التحريف السابع بجعل (لا أقسم) سورة لا يدري مدلولها من السورتين اللتين تصدق عليهما ، وكذلك فعل في التحريف الثامن .

وقد أضاف إلى هذا أنه جعل (طسم القصص) اسما لسورتين ، مع أنه اسم لسورة واحدة . وكذلك فعل في (طس سليمان) وفي (تبارك الفرقان) ثم عد (اللهم إياك نعبد الخ) سورة أخرى غير سورة الجيد (الحفد) وهي هي بعينها كما سيأتي ، وقد كان هذا سببا في زيادة هذا الترتيب ثلاث سور على الترتيب الذي سبق في كتاب الفهرست ، وكلاهما لا يصل إلى العدد الذي ذكره صاحب الفهرست لسور مصحف أبي بن كعب ، وهو مائة وست عشرة سورة .

وهذا هو ترتيب كتاب الإتيان لمصحف أبي بن كعب :

د فائدة — قال ابن أشتة في كتاب المصاحف : أنبأنا محمد بن يعقوب ، حدثنا أبو داود ، حدثنا أبو جعفر الكوفي ، قال : هذا تأليف مصحف أبي — الحمد . ثم البقرة . ثم النساء . ثم آل عمران . ثم الأنعام . ثم الأعراف . ثم المسائدة . ثم يونس . ثم الأنفال . ثم براءة . ثم هود . ثم مريم . ثم الشعراء . ثم الحج . ثم يوسف . ثم السكهف . ثم النحل . ثم الأحزاب . ثم بني إسرائيل . ثم الزمر أولها

حم (١) ثم طه . ثم الانبياء . ثم النور . ثم المؤمنون . ثم سبأ . ثم
العنكبوت . ثم المؤمن . ثم الرعد . ثم القصص . ثم النمل . ثم
الصافات . ثم ص . ثم يس . ثم الحجر . ثم حم عسق . ثم الروم .
ثم الحديد . ثم الفتح . ثم القتال . ثم الظهار . ثم تبارك الملك . ثم
السجدة . ثم إنا أرسلنا نوحا . ثم الأحقاف . ثم ق . ثم الرحمان .
ثم الواقعة . ثم الجن . ثم النجم . ثم سأل سائل . ثم المزمل . ثم المدثر .
ثم اقتربت . ثم حم (٢) . ثم الدخان . ثم لقان . ثم حم الجاثية . ثم
الطور . ثم الذاريات . ثم ن . ثم الحاقة . ثم الحشر . ثم الممتحنة .
ثم المرسلات . ثم عم يتساءلون . ثم لا أقسم بيوم القيامة . ثم إذا
الشمس كورت . ثم يا أيها النبي إذا طلقتم . ثم النازعات . ثم التغابن .
ثم عبس . ثم المطففين . ثم إذا السماء انشقت . ثم والتين والزيتون .
ثم اقرأ باسم ربك . ثم الحجرات . ثم المنافقون . ثم الجمعة . ثم لم
تحرم . ثم الفجر . ثم لا أقسم بهذا البلد . ثم والليل . ثم إذا السماء
انفطرت . ثم والشمس وضحاها . ثم والسماء والطارق . ثم سبح اسم
ربك . ثم الغاشية . ثم الصف . ثم سورة أهل الكتاب وهي لم يكن .
ثم الضحى . ثم ألم نشرح . ثم القارعة . ثم التكاثر . ثم العصر . ثم
سورة الخلع . ثم سورة الحفد . ثم ويل لكل همزة . ثم إذا زلزلت .
ثم العاديات . ثم الفيل . ثم لإيلاف قريش . ثم أرأيت . ثم إنا
أعطيناك . ثم القدر . ثم الكافرون . ثم إذا جاء نصر الله . ثم تبت ،
ثم الصمد . ثم الفلق . ثم الناس .

(١) في هذا تحريف سياقي بيانه .

(٢) يريد حم الزخرف لأنه لم يبق غيرها ، وقد ذكرت في ترتيب كتاب القمرست
بعد سورة الروم .

وعدد سور هذا الترتيب عشر ومائة سورة ، فهو ينهض ست سور عن عدد سور مصحف أبي بن كعب ، وهي سورة (حم فصلت) ولعلها سقطت بالتجريف في قوله (ثم الزمر أولها حم) لأن الزمر أولها تنزيل الكتاب لآدم ، ونص كتاب الفهرست (الزمر ، حم تنزيل) ثم سورة إبراهيم ، وهي مذكورة في كتاب الفهرست بعد (حم السجدة) ثم سورة الفرقان ، ولعلها سقطت في قوله (تبارك الملك) بسقوط حرف العطف ، والأصل تبارك والملك ، وسورة الفرقان مذكورة في كتاب الفهرست باسم (تبارك الفرقان) ثم سورة الملائكة ، وهي مذكورة في كتاب الفهرست بعد سورة إبراهيم ، ثم سورة الإنسان ، وهي مذكورة في كتاب الفهرست بعد سورة عم يتساءلون ، ثم سورة والسماء ذات البروج ، وهي مذكورة في كتاب الفهرست بعد سورة والشمس وضحاها ، وهذه هي السور الست الساقطة في ترتيب كتاب الإتيقان لمصنف أبي (حم فصلت ، وإبراهيم ، والفرقان ، والملائكة ، والإنسان ، والسماء ذات البروج) وهي مذكورة في ترتيب كتاب الفهرست لهذا المصنف ، كما أن كل السور الساقطة في ترتيب كتاب الفهرست له مذكورة في ترتيب كتاب الإتيقان له ، وبهذا تكون سور هذا المصنف هي بعينها سور مصنف عثمان ، ولا يكون هناك خلاف بينهما إلا في تقديم بعض السور على بعض ، وفي أسماء بعض السور . وفي زيادة سورتي الخلع والحفد في مصنف أبي . وقد كان ترتيب السور بالتقديم والتأخير يرجع إلى اجتهاد الصحابة . ولهذا اختلفوا في هذا الترتيب . وهذا لا يؤثر بشيء في نص القرآن . وكذلك الاختلاف في تسمية بعض السور . لأن الذي يضر اختلاف المسمى لا اختلاف الاسم . فلم يبق إلا زيادة سورتي الخلع والحفد في مصنف أبي .

وسورتا الخلع والحفد هما قنوت المالكية في صلاة الصبح. وقنوت
الحنفية في صلاة الوتر ، وقنوت المالكية : اللهم إنا نستعينك
ونستغفرك ، ونتوب إليك ونؤمن بك ، ونتوكل عليك ، ونثني عليك
الخير كله ، نشكرك ولا نكفرك ، نخضع لك ونخلع ، ونترك من يكفرك
اللهم إياك نعبد ، ولك نصلي ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد ، نرجو
رحمتك ، ونخاف عذابك ، إن عذابك بالكفار ملحق .

وقنوت الحنفية : اللهم إنا نستعينك ونستهديك ، ونستغفرك
ونتوب إليك ، ونؤمن بك ونتوكل عليك . ونثني عليك الخير كله .
نشكرك ولا نكفرك . ونخلع ونترك من يفجرك . اللهم إياك نعبد .
ولك نصلي ونسجد . وإليك نسعى ونحفد . نرجو رحمتك . ونخشى
عذابك ، إن عذابك الجدد بالكفار ملحق .

ولاشك أن هذا يكاد يكون قنوتاً واحداً ، فكان حقه أن يعد
سورة واحدة لا سورتين ، وإنما عده بعضهم قرآناً لما أخرجه
البَيْهَقِيُّ عن عمر بن الخطاب أنه قنيت بعد الركوع فقال : بسم الله
الرحمن الرحيم . اللهم إنا نستعينك إلخ ، وفيه بعض مخالفة للصورتين
السابقتين . فقال ابن جريح : حكمة البسملة أنهما سورتان في مصحف .
بعض الصحابة . ويمكن أن يرد عليه بأن البسملة مطلوبة في كل أمر
ذى بال ولو لم يكن قرآناً . على أن هذا ليس في شيء من أسلوب القرآن .
ويمكن أن يكون مكتوباً في مصحف أبي على أنه قنوت لا قرآن . لأنه يتلى في
الصلاة كما يتلى القرآن ، فألحق بهذا المصحف ليحفظ كما يحفظ ، ولعله كان في
آخره فأدرجه بعض الناس في وسطه ، ويمكن أيضاً أن يكون قد اشتبه
أمره على أبي ، وقدمات في خلافة عمر على الأرجح ، فلم يدرك إجماع الناس
على مصحف عثمان بعد خلافة عمر ، ولو أنه أدرك إجماعهم لزال اشتباهه
في ذلك . ورضي من مصحف عثمان ما رضى جمهور المسلمين بعده .

obituary.com

1		2	
3		4	
5		6	
7		8	
9		10	
11		12	
13		14	
15		16	
17		18	
19		20	
21		22	
23		24	
25		26	
27		28	
29		30	
31		32	
33		34	
35		36	
37		38	
39		40	
41		42	
43		44	
45		46	
47		48	
49		50	
51		52	
53		54	
55		56	
57		58	
59		60	
61		62	
63		64	
65		66	
67		68	
69		70	
71		72	
73		74	
75		76	
77		78	
79		80	
81		82	
83		84	
85		86	
87		88	
89		90	
91		92	
93		94	
95		96	
97		98	
99		100	

الاسلام وحرية البحث

بعث الله تعالى الرسل ليدعوا الناس إلى الإيمان به . وقد دعوا الناس إلى الإيمان بطريقتين :

أولها : طريق المعجزات الخارقة للعادة ، لأنها تدل على وجود إله قادر تخضع له نواميس الكون ، وتسير على وفق قدرته ومشيئته ، فتارة تأخذهم إلى الإيمان به أخذاً ، وتبهرهم بما فيها من خوارق العادات ، وعجائب القدرة الإلهية ، وتارة يمارون فيها ، وينسبونها إلى الشعوذة والسحر ، فيأخذهم الله بعنادهم ، ويهلكهم بتماديهم في كفرهم .

وثانيهما : طريق البحث والنظر وهو الذي أشار إليه القرآن الكريم في الآية د ١٦٢ ، من سورة البقرة (إنَّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثَّ فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) وفي قوله تعالى في الآية د ١٩٠ ، من سورة آل عمران (إنَّ في خَلْقِ السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب) وفي قوله تعالى في الآية د ٤ ، من سورة الرعد (وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوانٌ وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إنَّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون) وفي قوله تعالى في الآيات د ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، من سورة الغاشية

(أفلا ينظرونَ إلى الإبل كيف خُلقتْ ، وإلى السماء كيف رُفعت ،
وإلى الجبال كيف نُصبت ، وإلى الأرض كيف سُطحت) .

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تحت على النظر في ملكوت
السموات والأرض ، ليؤدي إلى الإيمان بالله عن طريق الاقتناع
العقلي ، ويصل الإيمان فيه إلى القلب بطريق البحث والنظر ، فلا يأخذ
الله الناس فيه بما يأخذهم به في الطريق الأول ، بل يمهّلهم فيه حتى يجيء
إيمانهم عن اقتناع ، وتطمئن قلوبهم به بعد إمعان البحث ، وتقلب
وجوه النظر .

وهذا الطريق هو الذي سلكه إبراهيم عليه السلام في الإيمان
بالله تعالى ، كما بينه القرآن الكريم في الآيات — ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ،
٧٨ ، ٧٩ — من سورة الأنعام (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت
السموات والأرض وليكونَ من الموقنين ، فلما جنَّ عليه الليلُ
رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى
القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال ان لم يهتدي ربي لأكوننَّ
من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبرُ
فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون ، إني وجهتُ وجهي
للذي فطر السموات والأرضَ حنيفاً وما أنا من المشركين) .

فهذا استدلال بطريق النظر على وجود الله تعالى ووحدانيته ،
وقد جاء قوله تعالى (فلما أفل قال لا أحب الآفلين) على هيئة الشكل
الأول من القياس الحلي الاقتراعي ، بعد أن حذفت مقدمته الأولى
اكتفاءً بلازم الثانية ، وهو (لا أحب الآفلين) وقد نَوَّهَ الله تعالى
بشأن هذا الطريق الذي سلكه إبراهيم عليه السلام ، ورفع به شأنه
على قومه وعلى سائر الأنبياء قبله ، وجعله خليفه من بينهم ، واصطفي

ذريته على غيرهم ، وكان لهذا الطريق أثره في إيمانهم به ، فلم يثبت
 الايمان به في أمة من الأمم كما ثبت فيهم ، لأن الايمان الذي يحدث
 بطريق النظر والبحث يكون أرفع شأنًا ، وأثبت أركانًا ، وأقوى
 يقينًا ، وقد ورد هذا التنويه بعد تلك الآيات السابقة ، فقال تعالى في
 الآيات ٨٢ : ٩٠ ، من تلك السورة (وتلك حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ
 عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ، وَوَهَبْنَا لَهُ
 إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمَن ذَرِيَّتُهُ دَاوُدَ
 وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ،
 وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ، وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ
 وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ
 وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ
 يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ فَإِن يَكْفُرْ
 بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ
 هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
 لِلْعَالَمِينَ) .

ومن ينظر في هذه الآيات يجد أن الله بعد أن نَوَّهَ بتلك الحجة
 التي آتاهها إبراهيم أمر نبيه محمداً أن يتخذها طريقاً له ، فيسلك في
 الايمان طريق النظر الذي سلكه إبراهيم ، ويأمر أتباعه بأن يتخذوه
 طريقاً لهم ، لأنه هو الطريق الذي هدى إليه العلم ، وجاءت به الحكمة
 المقتبسة من الوحي ، فمن سلكه كان من العلماء الصالحين ، واندرج في
 سلك الحكماء المهتدين ، وازداد بعلمه يقينًا ، واستمد من حكمته اطمئنانًا ،
 فثبت إيمانه ثبوت الجبال . ولا يتزعزع كما يتزعزع الايمان عن طريق

المعجزات الحسية ، لأن الإيمان عن طريقها لا يبقى على حاله بعد انقطاعها ، بل يأخذ في الضعف كلما بعد العهد بها ، وهو إلى هذا مما يستوى فيه العالم والجاهل ، وليس له سند باق من العلم ، فلا يثبت على الشكوك والأوهام التي تقوم بالنفس بعد انقطاع المعجزة .

ولهذا لم يرض الله للمسلمين أن يجعل إيمانهم عن طريق تلك المعجزات ، فلم يأتهم بها كمآت من قبلهم من الأمم ، ولم يحب المشركين إلى ما كانوا يقترحونه منها ، بل كان يوجبهم على طلبها ، ويبين لهم أن أغلب الأمم قبلهم لم يؤمن بها ، فكانت سبيلاً في عذابهم وهلاكهم ، كما قال تعالى في الآية ٥٩ ، من سورة الإسراء (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً) وفي الآية ٧ ، من سورة الرعد (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب) .

على أن الرسل السابقين كانوا يسلكون في الدعوة إلى الإيمان بالله طريق النظر قبل أن يسلكوا إليه طريق المعجزات ، فلا يأتون أقوامهم بها إلا بعد أن يأخذوهم بالأدلة النظرية ، ويقيموا لهم البراهين على وجوده تعالى ، فإذا لم يفد هذا معهم وتنادوا في التكذيب بعد قيام الحجة عليهم أناهم الله بتلك المعجزات ، ليأخذهم بها بعد أن لم تفد فيهم تلك الأدلة ، وهذا كما في قصة موسى عليه السلام مع فرعون ، فإن الله تعالى لما أرسله إليه هو وأخوه هارون لم يبداه بالمعجزات الحسية التي أرسل بها إليه ، بل سلك معه أولاً طريق النظر ، ودعاه إلى الإيمان بالدليل ، كما يدعو غيره من الناس ، ممن لم يؤيد بالوحي والمعجزات ، فقد ذكر الله في الآية ٤٩ ، من سورة طه أن

فرعون سأل موسى عن ربه (قال فمن ربكما يا موسى) فأجابه عن هذا في الآيات بعدها بذكر الأدلة النظرية التي تثبت وجوده ، فقال (قال ربنا الذى أعطى كلَّ شىء خلقه ثمَّ هدى ، قال فما بالُ القرونِ الأولى ، قال عليها عند ربى كتاب لا يضلُّ ربى ولا يَنسى ، الذى جعل لكم الأرض مهدياً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ، كلُّوا وارعوا أنعامكم إنَّ فى ذلك لآياتٍ لأولى النِّهى) ولكن فرعون كذب بعد هذا وعاند ، فأخذه بمعجزة العصا وغيرها من معجزاته الحسية .

ومن هذا كله يتبين أن الإيمان بطريق النظر هو الأصل ، وأن الرسل لم يعدلوا عنه الى الإيمان عن طريق المعجزة الحسية إلا بعد أن تمادى أقوامهم فى العناد ، وحال فرط جهلهم بينهم وبين الإيمان بالدليل النظرى ، لأنهم كانوا من الجبابرة العُتاة الذين لا يؤمنون إلا بالقوة الخارقة ، والقدرة التى تعجز أمامها قدرتهم ، فإذا لم يؤمنوا بعد ذلك حقَّ عليهم عذاب الدنيا والآخرة ، كما حكى الله تعالى عن نوح وقومه فى سورة نوح (قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ، فلم يزدكم دعائى إلا فرارا ، وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً ، ثم إني دعوتهم جهاراً ، ثم إننى أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً ، فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفَّاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ، ما لكم لا ترجئون لله وقاراً ، وقد خلقكم أطواراً . ألم ترَوا كيف خلق الله سمواتٍ طباقاً ، وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجاً ، والله أنبتكم من الأرض نباتاً ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً ، والله جعل لكم

الأرضَ بساطاً ، لتسلكوا منها سُبُلًا فجاجاً ، قال نوح ربِّ إنهم عَصَوْتَنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً ، وَمَكَرُوا مَكَرًا كَبِيرًا ، وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ، ثُمَّ أَخَذْنَاهُمْ أَغْرَقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا ، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً) الآيات - ٥ : ٢٥ .

وقد أطلق الله تعالى لعباده حرية البحث حين اختار لهم أن يؤمنوا به عن طريقه ، فلم يؤاخذهم بما يقعون فيه من الخطأ ، لأن الباحث عن الحقيقة قد يضل عن طريقها قبل أن يصل إليها ، وقد تعثر به شكوك وأوهام تحجبه حيناً عنها ، فلا يصل إليها إلا بعد جهاد وعناء ، وإلا بعد أن يتغلب على تلك الشكوك والأوهام ، فإذا وصل إليها بعد هذا أعطاه الله عليها أجرين : أجر ما عاناه في البحث عنها ، وأجر الوصول إليها . وإذا مات وهو يبحث عنها نفعه هذا في أخراه ، وشفع له فيها ما قام به من البحث قبل موته ، فيؤخذ بالعفو والصفح ، ولا يكون حاله كحال من لم يبحث عن الحقيقة .

وهذا إبراهيم عليه السلام قد أخطأ ثلاث مرات فيما سبق : أخطأ في المرة الأولى حين جن عليه الليل ورأى كوكباً فقال هذا ربي ، وأخطأ في المرة الثانية حين رأى القمر بازغاً فقال هذا ربي ، وأخطأ في المرة الثالثة حين رأى الشمس بازغة فقال هذا ربي هذا أكبر ، فلم يؤاخذ الله بخطئه بعد أن اهتدى إليه ، لأن الخطأ من طبيعة الإنسان ، وقد ركب عقله على أن يصيب ويخطئ ، فلا يجوز أن يؤاخذ على ما يقع فيه من خطأ ، بل لم يمنع ذلك الخطأ المتكرر من التنويه بمسلك إبراهيم في الاستدلال ، لأن من الخطأ ما لا يعاب ،

وكثيراً ما يكون الخطأ طريق الصواب ، ويكون الشك طريق اليقين .
ولم يفرق الاسلام في إطلاق حرية البحث بين أصول الدين
وفروعه ، بل فتح الباب في ذلك على مصراعيه ، حتى إن الله سمح
لبعض أنبيائه وأصفياه أن يسأله في أخطر مسائل الدين ، وأشدّها
دخولاً في باب الاعتقاد ، ومن هذا ماورد في الآية د ٢٦٠ ، من
سورة البقرة (وإذ قال إبراهيمُ ربِّ أرني كيف تحيي الموتى قال
أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير
فصرهنَّ إليك ثم اجعل على كلِّ جبلٍ منهنَّ جزءاً ثم ادعهنَّ يأتينك
سعيًا واعلم أنَّ الله عزيزٌ حكيمٌ) .

فقد سمح الله تعالى لإبراهيم عليه السلام أن يسأله في مسألة البعث ،
وهي من أهم مسائل الاعتقاد ، ليزداد فيها طمئناناً ، ويقوى بها إيماناً ،
فلا يتطرق إليه فيها شك ، ولا يحوم حوله فيها شبهة ، ولا حرج في
طلب زيادة الإيمان ، وإن كان في هذه المسألة من أصول الدين .

ومن ذلك أيضاً ماورد في الآيات د ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ،
من سورة المائدة (إذ قال الحواريُّون يا عيسى ابن مريم هل
يستطيع ربُّك أن ينزل علينا مائدةً من السماء قال اتقوا الله إن
كنتم مؤمنين ، قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئنَّ قلوبنا ونعلم أن قد
صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى ابن مريم اللهم ربَّنا
أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك
وارزقنا وأنت خيرُ الرازقين ، قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر
بعدئذٍ منكم فأني أعدُّ به عذاباً لأعدِّيه أحداً من العالمين) .

فقد جاء في هذه الآيات أن الحواريين سألوا عيسى عليه السلام
(هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء) وقد كانوا أصفياء

عيسى ورسله ، وهذا السؤال في صفة القدرة ، وهي أيضاً من أهم مسائل الاعتقاد ، ولكنهم أرادوا معجزة يزداد بها اطمئنانهم ، ويتضاعف بها يقينهم ، فأجابهم الله تعالى الى ما طلبوا ، لأنه أطلق لعباده حرية البحث عن الحقيقة ، وخلق الانسان وفي طبيعته من النقص ما يجعله يتفاوت في الإيمان قوة قوة وضعفاً ، فلم يشأ مع هذا أن يضيق عليه اذا أراد أن يزداد يقيناً ، ولم ير حرجاً ألا يقنع بما عنده من إيمان ، وأن يسأله ما يطمئن به على إيمانه .

ولكن الله تعالى لم يقبل مع هذا أن يسمع لقوم آخرين ما عندهم من شبه أو شكوك ، بل غضب عليهم ولعنهم وطردهم من رحمته ، ولم يجبه عن شبههم كما أجاب من أراد أن يزداد اطمئناناً ، وهذا كما فعل مع إبليس حين أمره بالسجود لآدم فأبى ، لأنه يرى أنه أعلى منه ، فلا يصح أن يسجد له ، فقال في الآيات ١١ و ١٢ و ١٣ ، من سورة الأعراف (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا لللائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ، قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ، قال فاهبط فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين) .

فقد أخطأ إبليس في عصيانه أمر الله تعالى ، ثم أصر على خطئه ، واعتمد فيه على تلك الشبهة التي ذكرها ، والمصر على خطئه معاند لا يعذر فيه ، وكان عليه أن يجيب أمر الله تعالى أولاً ، ثم يسأله عما عنده من شبهة ليزيل ما في نفسه من ذلك الأمر ، ولكنه لم يفعل ذلك ، بل سلك طريق المعارض المعاند ، وبهذا لا يكون طالب حقيقة ، ولا يعذر في خطئه ، لأنه لا يعذر إلا من طالب الحقيقة

فأخطأ في طريقه إليها ، لما عنده من حسن القصد ، ومن أحسن القصد استحق العذر .

هذا ولا يقتصر ما جاء في الإسلام من إطلاق حرية البحث على نصوص القرآن ، بل ورد فيه أمثلة رائعة في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، تدل على أنه كان يذهب في إطلاق حرية البحث إلى أبعد حد ، ويضرب للمسلمين فيه أمثلة تعلمهم كيف يأخذون الناس في الدعوة باللين واللطف ، ويمهلونهم فيها إلى أن يؤمنوا عن اقتناع ، ويهتدوا بعد طول بحث ونظر ، ولا يأخذونهم بقسر أو عجلة ، لأن الإيمان لا يقبل إلا إذا كان عن اعتقاد بالقلب ، وإلا إذا صار إليه صاحبه برضا واختيار .

ومن ذلك أن صفوان بن أمية بن خلف الجُمَحِي كان من أشد قريش عداوة للإسلام ، وكان إليه في الجاهلية أمر الأزام ، وهو أحد العشرة الذين انتهى إليهم شرف الجاهلية من عشر بطون في قريش ، فلما قتل أبوه أمية وغيره من أشراف قريش في غزوة بدر ، جلس هو وعُمَيْر بن وهب الجمَحِي في الحَجْر ، وكان شيطاناً من شياطين قريش ، فذكر مصاب قريش في أشرافها ، فقال صفوان : والله إن في العيش بعدهم خير . فقال له عمير : صدقت والله ، أما والله لو لا دَيْن عليّ ليس له عندي قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى ، لركبت إلى محمد حتى أقتله . فقال له صفوان : عليّ دينك ، أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالي ، أواميرهم ما بقوا ، لا يسعني شيء ويعجز عنهم . فقال له عمير : فاكتم عني شأنك وشأنك . ثم أمر بسيفه فشحذله ، ثم انطلق حتى قدم به المدينة ، فرآه عمر بن الخطاب فأخبر به النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمره بإدخاله عليه ، فلما دخل عليه قال

له : ما جاء بك يا عمير ؟ قال : جئت لهذا الأسير الذى فى أيدىكم — وكان ابنه من أسرى بدر — فقال له : فما بال السيف فى عنقك ؟ قال : قبضها الله من سيوف ، وهل أغنت عنا شيئاً ؟ فقال له : أصدقنى ما الذى جئت له ؟ قال : ما جئت إلا لذلك . فقال له : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر ، فذكرتما أصحاب القليب من قريش . وذكر له كل ما حصل بينهما ، وكان سرّاً لا يعلمه غيرهما ، فقال عمير : أشهد أنك رسول الله . فأسلم بعد أن أخبره بهذا السر .

وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير إلى المدينة يقول لقريش : أبشروا بواقعة تأتىكم الآن فى أيام تنسيكم وقعة بدر . وكان يسأل عن عمير الركبان ، فلما رجع إلى مكة مسلماً حلف لا يكلمه أبداً ، ولا ينفعه بنفع أبداً .

ثم كان من صفوان بعد ذلك أن رهطاً من عضل والقارة قدموا مكة بأسرى من المسلمين غدروا بهم ، فابتاع منهم صفوان زيد ابن الدثنة ليقتله بأبيه أمية ، ثم بعث به مع مولى له إلى التنعيم ليقتله خارج الحرم ، فقتله هناك أمام رهط من قريش .

فلما قصد النبي صلى الله عليه وسلم مكة عام الفتح أهدر دم صفوان فيمن أهدر دمه ممن كانت له مثل هذه الجرائم . فهرب صفوان بعد فتح مكة يريد جُدَّةَ ليركب البحر منها إلى اليمن ، فجاء عمير إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : يا نبي الله ، إن صفوان بن أمية سيد قومه ، وقد خرج هارباً منك ليقتل نفسه فى البحر ، فأمنه . فأجابه صلى الله عليه وسلم إلى ما طلب منه .

فخرج عمير وراء صفوان حتى أدركه ، وأخبره بأمان النبي صلى الله عليه وسلم . ولم يزل به حتى رجع به إلى مكة ، فدخل على النبي

صلى الله عليه وسلم وقال له : إن هذا — يعنى عميرا — يزعم أنك قد أمّنتنى . فقال له : صدق . فطلب منه أن يبقيه على الشرك شهرين ، فقال له : لك أربعة أشهر .

وهذا هو محل الشاهد من هذه القصة ، لأن صفوان لم يطلب أن يبقى شهرين على الشرك إلا ليهيئ فيما يقدم عليه من الإسلام ، ولا يكون كمن أسرع إلى الإسلام من قريش بروعة الفتح ، وبأدر إليه بتأثير النصر ، بل يسلم بعد أن تذهب تلك الروعة ، ويمضى زمن على ذلك النصر الذى أخذ بقلوب قريش ، فيصير إلى الإسلام بعد أناة وطول بحث ، وبعد موازنة بين ما كان عليه وما سيصير إليه ، ليفرق بين العهدين ، ويميز بين الحالين ، فيرى الحق مقتنعا بالدليل ، ويطمئن إليه بالعقل ، ويؤمن إيمانا يليق بما كان يعرف به بين قريش من صواب رأى ، وحسن المعرفة ، وكمال العقل .

ولم ير النبي صلى الله عليه وسلم حرجا فى أن يجيبه إلى ما طلب ، ولا فى أن يعطيه أربعة أشهر ، فيزيده شهرين على ما طلب ، لأنه لا يطلب من الناس إيمانا لا يجاوز حناجرهم ، ولا يصل إلى قلوبهم ، وإنما يطلب منهم إيمانا يوافق القلب فيه اللسان ، ويكون اعتقادا بالقلب ، قبل أن يكون إقرارا باللسان ، وعملا بالجوارح ، فإذا رأى شخص أنه لا يمكنه أن يصل إلى هذه الدرجة من اليقين إلا بعد البحث والنظر ، وإذا رأى أن هذا البحث لا يتم إلا فى مدة مثل المدة التى طلبها صفوان أو أقل أو أكثر ، أجيب إلى ما يطلبه من الإمهال ، حتى لا يكون هناك قهر أو إكراه على الإسلام ، بل يكون الإسلام عن طوعية واختيار ، ويكون الإيمان عن اعتقاد بأن الإسلام هو الدين الحق .

وقد أجاب النبي صلى الله عليه وسلم صفوان إلى ما طلب وهو لا يعلم هل يبقى إلى هذه المدة أو يموت ؟ بل جاءت غزوة حنين عقب فتح مكة فخرج النبي صلى الله عليه وسلم إليها ، وخرج صفوان معه على شركه ، ليحارب في صفوف المسلمين ، والحرب تدنو فيها المنايا ، وتقرب فيها الآجال ، فلم ينقص النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً من مدة إمهال صفوان ، ولم يخف أن تبادره المنية في هذه الغزوة فيموت مشركاً ، ويكون عليه شيء من التبعة في موته على الشرك ، لأنه هو الذي أذن له في البقاء عليه إلى تلك المدة .

وإنما لم يخف النبي صلى الله عليه وسلم هذا لأن صفوان كان يطلب الحقيقة في تلك المدة ، ويسعى في سبيل الوصول إليها ، ويقاب وجوه النظر التي تجعله يذعن بها ، وطالب الحقيقة على هذا الوجه لأشياء عليه إذا مات دون الوصول إليها ، لأن التكليف يعتمد القدرة على المكلف به ، ولا يمكن الإيمان بالحقيقة إلا بالدليل ، والدليل يقتضي زمناً يختلف باختلاف الناس ، فمن مات وهو يطلب الدليل يكون معذوراً ، ولا يكون شأنه كشأن المعاند في طلب الحقيقة ، ولا كشأن من يعرفها ولا يؤمن بها ، لأن طالب الحقيقة يصل إليها غالباً ، فمن سار على الدرب وصل ، والحقيقة بذت البحث ، فإذا مات دون ذلك كان الأجل هو الذي حال بينه وبينها ، والأجل يرجع إلى الله تعالى ، ولا يد فيه للخلق .

وكان من أمر صفوان بعد إمهاله أن النبي صلى الله عليه وسلم بلغه حين قصد غزوة حنين أن عنده أدرعاً وسلاحاً ، فأرسل إليه فقال : يا أبا أمية ، أعرنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا غدا . فقال صفوان : أغضب يا محمد ؟ قال : بل عارية مضمونة حتى تؤديها إليك . فقال

صفوان : ليس بهذا بأس . ثم أعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح .
ثم ساروا إلى غزوة حنين ، فامتحنهم الله في أولها امتحاناً شديداً
حين أعجبته كثرتهم ، وهنا ظهر الفرق بين صفوان الذي يريد أن
يسلم عن طمأنينة نفس ومن أسلم بروعة الفتح ، فقد فرح كثير من
أسلم بتلك الروعة حين هزم المسلمون ، وجاء بعضهم إلى صفوان
فقال له : الآن بطل السحر . فقال له : أسكت كفض الله فاك ، لأن
يَرُبُّنِي رجل من قریش خير من أن يربني رجل من هوازن . ثم
جاء إليه آخر يبشره بهذه الهزيمة ، فقال له : أتبشرني بظهور الأعراب .

ولا شك أن هذا يدل على أن صفوان قطع شوطاً بعيداً في
الوصول إلى الحقيقة التي ينشدها ، حتى كان في شركه أفضل من أولئك
الذين أسلموا على عجل ، وبتأثير دهشة الفتح ، فلما هزم المسلمون
في هذه الغزوة نكصوا على أعقابهم ، وذهبت دهشة الفتح التي كانت
سبباً في إسلامهم ، أما صفوان فكان قد بحث وقلب وجوه النظر ،
وعرف أن الإسلام يدعو إلى الإصلاح والنظام ، وأن أولئك
الأعراب لا يرجي منهم ما يرجي من الإسلام ، فلم يفرح بظهورهم
على المسلمين .

وقد انتصر المسلمون في هذه الغزوة بعد هزيمتهم ، وغنموا فيها
غنائم كثيرة ، فأعطى النبي صلى الله عليه وسلم منها من أسلم في الفتح
عطاء كثيراً ، تأليفاً لهم ، وتثبيتاً لإسلامهم ، وأعطى صفوان مائة من
الإبل ، ثم مائة ، ثم مائة ، وراه يرمق شعباً مملوماً نعماً وشاء ، فقال
له : لعله يعجبك هذا ؟ قال : نعم . فقال له : هو لك وما فيه . فقال
صفوان : إن الملوك لا تطيب أنفسهم بمثل هذا ، ما طابت نفس أحد

قط بمثل هذا إلا نبي ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فأسلم صفوان بعد أن رأى بعقله أن شأن النبي صلى الله عليه وسلم ليس من شأن الملوك ، وبعد أن اهتدى بعقله إلى أنه نبي لأممك ، وكان هذا قبل أن تنتهي المدة التي أمهل فيها على الشرك ، فكان إسلاما يليق بأمثال صفوان من العلماء الباحثين ، والحكام المفكرين .

ثم سار الخلفاء الراشدون هذه السيرة بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان بعض الصحابة يصل فيما أطلق لهم من حرية البحث إلى حد الشذوذ ، ومخالفة إجماع الجمهور ، فيكتفي في أمره بأن يبين له ما وقع فيه من خطأ ، ثم يترك لنفسه ليتدبر أمر خطئه ، فإذا اقتنع بأنه أخطأ رجع إلى الصواب عن رضا واختيار ، وإذا لم يقتنع بأنه أخطأ لم تستعمل معه أية وسيلة من وسائل القهر والإكراه ، ولم يثر عليه العامة وأشباه العامة حتى يرجع عن رأيه ، فيرجع تسكيناً لثورتهم ، لا عن اقتناع بأنه مخطئ ، كما حصل بعد عهد الخلفاء الراشدين ، فكان له أسوأ أثر في المسلمين ، لأنه حذر من حرمتهم ، فركنوا إلى الجمود ، وهابوا الرأي الحر ولو كان صواباً ، خوفاً من ثورة العامة وأشباههم عليهم ، ومن الأذى الذي يلحقهم بسبب ثورتهم .

ومن ذلك ما وقع من قدامة بن مظعون في عهد عمر بن الخطاب ، وكان قدامة من السابقين إلى الإسلام ، ومن هاجر إلى الحبشة والمدينة ، ومن شهد بدرا وغيرها من المشاهد ، وكان زوجاً لصفية أخت عمر ابن الخطاب ، ووالياً لعمر على البحرين .

وقد اتهم في ولايته على البحرين أنه شرب الخمر ، وشهد عليه بذلك بعض الشهود ، فقال له عمر : إني حادك . فقال قدامة : لو

شربت كما تقول ما كان لكم أن تحدثوني . فقال له عمر : لم ؟ فقال : قال الله عز وجل (ليسَ على الذين آمنُوا وعملوا الصالحات جناحٌ فيما طعمُوا إذا ما اتَّقُوا وآمنُوا وعملوا الصالحات ثم اتَّقُوا وآمنُوا ثم اتَّقُوا وأحسنوا واللهُ يحبُّ المحسنين) فقال له عمر : أخطأت التأويل ، إنك إذا اتقيت الله اجتنبت ما حرم الله .

فقد خالف قدامة الجمهور في هذا الرأي ، وصار إلى رأى شاذ مخالف لصريح القرآن ، لأن الله تعالى قد حرم الخمر تحريماً صريحاً قبل الآية التي احتج بها لرأيه ، وهي الآية (٩٣) من سورة المائدة ، فقال في الآية (٩٠) من هذه السورة (يا أيها الذين آمنُوا إنما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) ففهم قدامة أن الآية التي احتج بها تنفي الجناح عن كل ما يطعمه الإنسان من خمر وغيره ، فتكون تقييداً لتلك الآية ، وهذا خطأ ظاهر يأباه سياق الآيات ، ويأباه الإجماع على تحريم الخمر بعد نزول تلك الآية ، وما كان لقدامة أن يخفى عليه مثل هذا ، ولكن عمر لم يثر عليه لهذا الخطأ الظاهر ، وقد وقع في مسألة الخمر التي اهتم الإسلام بتحريمها أعظم اهتمام ، بل اكتفى بأن أظهر له خطؤه في هوادة ورفق ، وذكر له أن الله لم ينف الجناح عن كل ما يطعمه الإنسان نفياً مطلقاً ، بل قيده بتقوى الله تعالى ، والتقوى هي امتثال الأوامر واجتناب النواهي ، فلا يدخل في ذلك ما حرمه الله من خمر وغيره .

ولم يكن من عمر بعد هذا إلا أن اكتفى بإقامة حد الخمر على قدامة ، وإلا أن أبقاه عنده بالمدينة ، ولم يعده إلى ولايته ، لأن أمره لا يستقيم بين أهلها بعد ما كان منه ، وكل من الأمرين يدخل في

العقوبة على شرب الخمر ، وليس في الأمرين عقوبة على ذلك الرأي الذي أخطأ فيه ، وحاول به أن يسوغ ما أتاه من شرب الخمر .

فلم يغضب عمر على قدامة بعد هذا لأنه شذ على الجمهور بذلك الرأي ، ولأنه رأى به ما لم يكن يليق به في سابقته وشرفه ، بل كان قدامة هو الذي غضب على عمر ، ومكث مغاضبا له إلى أن حج عمر في سنة من السنين ، فلما رجع من حجه نزل بالسقيا فنام به ، وهو موضع بين المدينة ووادي الصفراء ، فلما استيقظ من نومه قال : عجّلوا عليّ بقدامة ، فوالله لقد أتاني آتٍ في منامي فقال لي : سالم قدامة فإنه أخوك ، فعجلوا على به .

فذهبوا إلى قدامة فأخبروه بأمر عمر ، فأبى أن يذهب معهم إليه ، فرجعوا إلى عمر فأخبروه بأنه أبى أن يأتي معهم ، فأمرهم أن يرجعوا إليه فيجرّوه إن أبى ، فلما رأى قدامة ذلك ذهب معهم إليه ، فكلّمه عمر واستغفر له ، فتصالحا وعادا إلى مثل ما كانا عليه .

ومن ذلك أيضا ما وقع من أبي ذرّ الغفاريّ في عهد عثمان بن عفان ، وكان أبو ذر من السابقين إلى الإسلام ، وقد بلغ من منزلته عند النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه كان يبتدئه إذا حضر ، ويتفقده إذا غاب ، حتى قال في حقه : ما أَوْلَيْتُ الغبراء ، ولا أظلت الخضراء ، أصدق لهجة من أبي ذر .

وكان أبو ذر قد اختار الإقامة بالشام ، فلما ذهب إليها عبد الله ابن سبأ لينشر فيها فتنته لقي أبا ذر فقال له : يا أبا ذر ، ألا تعجب إلى معاوية — وكان واليا على الشام — يقول : المال مال الله ، ألا إن كل شيء لله ، كأنه يريد أن يحتجّنه دون المسلمين^(١) ويمحو اسم المسلمين .

(١) احتجّن المال ضمه واحتواه .

فوافق هذا ما طبع عليه أبو ذر من الزهد ، وما إن سمعه حتى قام إلى معاوية فقال له : ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله ؟ فقال له معاوية : يرحمك الله يا أبا ذر ، ألسنا عباد الله ، والمال ماله ، والخلق خلقه ، والأمر أمره . فقال له أبو ذر : فلا تقله . فقال له معاوية : فإني لا أقول إنه ليس لله ، ولكن سأقول إنه مال المسلمين .

وهذا المال هو مال النبي ، وقد أراد أبو ذر أن يذكر على معاوية احتجانه دون المسلمين بحجة أنه مال الله ، فتكون له الولاية عليه والتصرف فيه ، يخالفه أبو ذر في هذا ، ورأى أنه لا يصح له احتجانه دونهم ، بل يجب أن ينفقه كله عليهم ، ولا يدخر منه شيئا .

ثم تجاوز أبو ذر برأيه مال النبي إلى الأموال الخاصة ، فرأى أنه لا يصح لشخص أن يقتني أكثر من قوت يومه ، وقام بالشام يدعو إلى هذا ويقول : يا معشر المسلمين ، واسئوا الفقراء ، بشعر الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكائيل نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . فولع الفقراء به ، والتفوا حوله ، وأوجبوا على الأغنياء ما يدعوا إليه ، فشكى الأغنياء منه إلى معاوية ، فكتب إلى عثمان :

إن أبا ذر تجتمع إليه الجموع ، ولا آمن أن يفسدهم عليك ، فإن كان لك في القوم حاجة فاحمله إليك .

فكتب عثمان إلى معاوية :

إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينها ، فلم يبق إلا أن تثب ، فلا تنكأ القرح ، وجّهز أبا ذر إلى ، وأبعث معه دليلا ، وزوده وارفق به ، وكف فكيف الناس ونفسك ما استطعت ، فإنما تمسك ما استمسكت .

فبعث معاوية أباذر إلى عثمان ومعه دليل ، فقال له عثمان حين دخل عليه : يا أباذر ، ما لأهل الشام يشكون ذربك ؟ فذكر له أنه لا ينبغي أن يقال مال الله ، ولا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالا . فقال له عثمان : يا أباذر ، عليّ أن أقضى ما عليّ ، وأخذ ما على الرعية ، ولا أجبرهم على الزهد ، وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد .

وكان رأى عثمان هو رأى جمهور المسلمين ، وقد جرى العمل به في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي عهد أبي بكر ، وفي عهد عمر ، فشذ عنهم أبوذر بهذا الرأي ، وخالف به إجماعهم ، فلم يكن من عثمان إلا أن بين له خطأه فيه ، ولم يحاول أن يرجعه عنه بوسيلة من وسائل القهر والإكراه ، بل كان أبوذر يستعمل الشدة في الدعوة إلى رأيه ، فيقابل به عثمان باللين ، وقد دخل على عثمان يوما وعنده كعب الأحبار ، فقال لعثمان : لا ترضوا من الناس بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف ، وقد ينبغي للوُدَى الزكاة ألاّ يقتصر عليها ، حتى يحسن إلى الجيران والإخوان ، ويصل القرابات . فقال له كعب : من أدّى الفريضة فقد قضى ما عليه . فرفع أبوذر محبته فضرب كعبا فشجّه ، ثم قال له : يا ابن اليهودية ، ما أنت وماهنا ؟ فقال له عثمان : يا أباذر ، اتق الله ، واكف يدك ولسانك . ثم استوهب كعبا ما فعله معه ، فوهبه له ، وقد دخل أيضا على عثمان وعنده كعب الأحبار ، فأتى بركة عبد الرحمان بن عوف ، فنضّت البدر حتى حالت بين عثمان وبين الرجل القائم ، فقال عثمان : إني لأرجو لعبد الرحمان خيرا ، لأنه كان يتصدق ، ويقرى الضيف ، وترك ما ترون ! فقال كعب : صدقت يا أمير المؤمنين . فشال أبوذر العصا فضرب بها رأس كعب ، ثم قال : يا ابن اليهودي ، تقول لرجل مات وترك هذا المال إن الله أعطاه

خير الدنيا والآخرة ! وتقطع على الله بذلك ! وأنا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما سرني أن أموت وأدع ما يزن قيراطا ، . ولكن أباذر لم يجد في المدينة من يستمع لرأيه ، فضايق بأهلها ، وطلب من عثمان أن يأذن له في الخروج منها ، فأذن له فخرج حتى نزل الرَبْذَةَ بالبادية ، فخطَّ بها مسجدا ، وقد أقطعه عثمان صدقة من الإبل ، وأعطاه مملوكين ، وأرسل إليه أن تعاهد المدينة حتى لا ترتدَّ أعرابيا ، وقيل : إن عثمان نفاه إلى الربذة . فإذا صح هذا فإنه لا يكون عقابا له على رأيه ، وإنما كان لأن أباذر جاوز الحد في الدعوة إليه ، فلجأ فيها إلى وسائل لإيليق اتخاذها في تأييد الرأي ، من السب والشتم والضرب ، فيكون إبعاده لكف آذاه عن الناس ، وهذا إلى أن المسلمين كانوا في فتنة شديدة ، وكانت هناك ثورة تدبر للقضاء على حكم عثمان ، وكان أبوذر من المشتركين فيها ، فيكون إبعاده لهذا أيضا .

ولا شك أن ماجرى لقدامة وأبيذر ثبت أن الاسلام يمضى في حرية البحث إلى نهايتها ، فبأخذها الناس حين يتجهون إلى البحث ، ولا يمنعهم من البحث الحر في سبيل الوصول إلى الحقيقة ، فإذا انتهى البحث بهم إلى الخطأ اكتفى بأن يبين لهم خطأهم ، ولم يجاوز هذا بأن يحاول إرجاعهم عنه بوسائل القهر ، بل يتركهم بعد تنبيههم إلى خطئهم أحرارا ، ليرجعوا عنه وهم مقتنعون بأنه خطأ ، ويصيروا إلى الصواب عن رضا واختيار .

ثم كان في خلافة علي بن أبي طالب ما هو أدهى مما كان من قدامة وأبيذر ، إذ ظهر فيها عبدالله بن سبأ ، وكان يهوديا فأظهر الاسلام ، وأراد أن يكون له عند أهل الكوفة سوق ورياسة ، فذكر لهم أنه

وجد في التوراة أن لكل نبي وصياً ، وأن علياً وصي محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه خير الأوصياء ، كما أن محمداً خير الأنبياء ، فلما سمع ذلك منه شيعة على قالوا له : إنه من محبيك . فرفع قدره وأجلسه تحت درجة منيره ، ثم إنه تعالى في ذلك حتى زعم أن علياً نبي ، بل زعم أنه إله ، فهم على بقتله حين ظهر منه ذلك ، فنفاه ابن عباس وقال له : إن قتله اختلاف عليك أصحابك . فنفاه إلى سبابط المدائن ولم يقتله ، وهذا يدل على أنه لا يلزم قتل المرتد ، لأنه لو كان يجب قتل المرتد لقتل على عبدالله بن سبأ ، ولم يكتب بنفيه إلى سبابط المدائن ، وإنما نفاه إليها لأن ما ذهب إليه ليس في شيء من الرأي ، وإنما هو جهالة وضلالة تضر الناس ، وتفسد الأفكار ، ومثل هذا لا شيء في العقوبة عليه بالنفي ونحوه ، أما قتل المرتد فقد شاع بيننا بشيوع المذاهب الفقهية الأربعة ، لأنها متفقة على قتل المرتد مطلقاً ، ومن المذاهب ما يقصر قتله على الذكر دون الأنثى ، ومنها ما يرى أنه لا يقتل مطلقاً ، بل يستتاب أبداً إلى أن يموت ، وهذا المذهب أوفق عندي بما جاء به الإسلام من أنه لا إكراه في الدين ، لأن نفي الإكراه يجب أن يكون بعدم قهر أحد على الأخذ به في الابتداء والدوام ، إذ لا فرق بين الأمرين ، ولا معنى لإكراه المرتد على الرجوع إلى الإسلام إذا لم يكن رجوعه عن اقتناع ، لأن هذا لا يجعله مسلماً إسلاماً صحيحاً ، ولا ينفعه عند الله تعالى .

وكما جاء الإسلام بإطلاق الحرية الدينية ، جاء بإطلاق الحرية السياسية ، فجعل الناس أحراراً في أمور دينهم وسياساتهم ، ومن هذا ما حصل في بيعة أبي بكر بالخلافة ، فقد تخلفت فاطمة عن بيعته حتى ماتت بعد ستة أشهر من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يكرها أحد

على بيعته قبل وفاتها ، وتخلف أيضاً عن بيعته عليّ بن أبي طالب ،
لأنه كان يرى أنه أحق منه بالخلافة ، ولم يبايعه إلا بعد وفاة زوجته
فاطمة ، وتخلف أيضاً عن بيعته سعد بن عباد ، لأنه كان يرى أن
الأنصار أحق بالخلافة من المهاجرين ، وكان رئيس الأنصار ، فيكون
أحق بها من أبي بكر ، وقد مكث على رأيه مدة خلافته ، ولما بايع
الناس عمر بعده لم يبايعه أيضاً ، ومكث على رأيه وحده دون المسلمين
جميعاً ، ولما فتح الشام ذهب إلى حوران فأقام بها إلى أن توفي
سنة ١٥ هـ .

ومن ذلك أن الخوارج أنكروا خلافة علي بعد بيعتهم له ، فلم
ير أن يكرههم على الدخول في خلافته ، بل قال لهم في بعض خطبه :
إن لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتمونا ، لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها
اسمه ، ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا ، ولا نقاتلكم حتى
تبدؤونا .

فلما خرجوا من الكوفة وأخذوا يقتلون من لا يرى رأيهم في
عليّ وأصحابه خرج إلى قتالهم ، ولم يبدأهم بالقتال حتى أرسل إليهم أن
ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم أقتلهم بهم ، ثم أنا تارككم وكاف عنكم .
فقالوا : كلنا قتلهم ، وكلنا مستحل لدمائكم ودمائهم . فقاتلهم على قتلهم
المسلمين واستحل لهم دماهم ، ولم يقاتلهم على رأيهم في خلافته .

رد على رد :

أثار ما ذكرته في مقال — الإسلام وحرية البحث — اعتراضات
كثيرة ، فأخذ بعض العلماء عليّ أنى لا أفرق بين حرية البحث والنظر
في الدليل ، وأنى أعنى من حرية البحث إرخاء العنان للفكر في ترتيب

المقدمات واستخراج النتائج خطأ أو صواباً في كل شيء ، ورد على
بأن الإسلام أطلق حرية البحث فيما عدا الأمور العقلية المتعلقة بالعقائد ،
ولم يحز لأحد من أهل القبلة أن يكون حراً في بحث يؤديه إلى الكفر
والإلحاد ، وهو يتجنى في هذا على ، لأنه لا يمكن أن أريد هذه الحرية
المطلقة التي تبيح الكفر والإلحاد لأهل القبلة ، وإنما أريد الحرية التي
أتى بها الإسلام ، كما يفهم من سياق كلامي ، ومعناها أنا لا نكره أحداً
على الإيمان ، بل ندعو إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وهذا هو
ما صرح به القرآن الكريم في الآية (١٥٦) ، من سورة البقرة
(لا إكراه في الدين) وفي الآية (١٢٥) ، من سورة النحل (ادعُ
إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) .

ثم أخذ على أنى نسبت إلى إبراهيم أنه كان يعبد الكواكب ، مع
أنه لم ير دُعاة في كلامي ، وإن قال به بعض المفسرين ، قال ابن كثير :
اختلف المفسرون في هذا المقام هل هو مقام نظر أو مناظرة ؟
فروى ابن جرير عن ابن عباس قوله (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت
السموات والأرض وليكون من الموقنين) يعنى الشمس والقمر ،
فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فعبدته حتى غاب ، فلما
غاب قال لا أحب إلا فلان إلخ . وقد رجح ابن جرير هذا الرأي
مستدلاً بقوله (إئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين) وابن
جرير له منزلته بين المفسرين ، وقد سوغ بعضهم هذا بأنه كان في
حال الطفولة . واختار صاحب الكشف أن المقام في ذلك مقام
مناظرة بين إبراهيم وقومه ، فجاءهم في ذلك ليبين لهم وجه الخطأ فيه ،
ثم قال : وقيل هذا كان نظره واستدلالة في نفسه ، فخاها الله ، والأول
أظهر . فلم يعد الأمر عند صاحب الكشف أن يكون ما اختاره

أظهر مما اختاره ابن جرير ، وأظهر أفعال تفضيل تقتضى اشتراك
المقامين فى أصل الظهور ، فلو أنى نسبت فى مقالى إلى إبراهيم أنه كان
يعبد الكواكب لكنت ذاهباً فى هذا مذهب من يرى من المفسرين
أن المقام فيه كان مقام نظر لا مقام مناظرة ، ولكنى لم أقل ذلك ،
وإنما قلت : إن إبراهيم أخطأ ثلاثاً فى قوله (هذا ربى) وخطؤه فى
هذا لا يتعين أن يكون بالشرك وعبادة الكواكب . فقد ذكر القرطبي
أن بعض المفسرين ذهب إلى أن إبراهيم ظن حين رأى الكواكب أن
نوره نور ربه ، فلما أفل ظهر له أنه ليس بنوره ، وهذا كما قال القرطبي
خطأ لا شرك فيه ، على أنى أرى أن إبراهيم كان فى مقام نظر وبحث
قبل النبوة ، ومقام النظر والبحث مقام فرض واستنتاج ، ولا يصل
صاحبه إلى مقام الاعتقاد إلا بعد الانتهاء من البحث ، فلا يصح أن
ينسب إليه إلا الرأى الأخير الذى ينتهى إليه فى البحث ، وعلى هذا
لا يصح أن ينسب إلى إبراهيم إلا الحقيقة التى وصل إليها بعد بحثه ،
لأن ما كان منه أثناء بحثه كان على سبيل الفرض والتقدير ، ولم يكن
على سبيل الاعتقاد والجزم .

ثم أخذ على أنى قلت إن إبراهيم سأل ربه كيف يحيى الموتى لدفع
الشك عن نفسه ، مع أنى لم أقل هذا ، وإنما قلت إن إبراهيم سأل ذلك
ليزداد اطمئناناً . ويقوى إيماناً . فلم يكن السؤال عندى لدفع الشك ،
وإما كان لزيادة الاطمئنان . كما قال صاحب الكشف : ليزداد سكوناً
وطمأنينة بمضامة علم الضرورة علم الاستدلال . وتظاهر الأدلة أسكن
للقلوب ، وأزيد للبصيرة واليقين .

ثم أخذ على أنى أجوز الاجتهاد فى العقليات من العقائد ، وذكر
أن هذا يؤدى إلى تجويز الاجتهاد فى وجود الله ووحدانيته وقدرته

وغير هذا مما لا يجوز الاجتهاد فيه ، ولا شك أن في هذا كثيرا من التجنى على ، لأنه لا يمكن أن يصل إلى الأمر إلى تجوير الاجتهاد في مثل ذلك من العقائد ، وإنما يجوز الاجتهاد فيما اختلفوا فيه منها ، وقد ذهب ابن رشد إلى تجوير الاجتهاد في العقائد ، وهو من أئمة المالكية ، ولا يريد إلا تجوير الاجتهاد فيما يقبل الاجتهاد من العقائد ، كما أن الاجتهاد في الفروع إنما يجوز فيما يقبل الاجتهاد منها ، لأن منها ما لا يقبل الاجتهاد كوجوب الصلاة ، كما أن من الأصول ما لا يقبل الاجتهاد كوجود الله .

ثم ذكر أني أحاول في مقالتي إرضاء بدعة جديدة تسمى حرية البحث ، فوافق في هذا من يزعم من أعداء الإسلام أنه عدو البحث الحر ، والحقيقة أن حرية البحث ليس بدعة في الإسلام ، وإنما هي مفخرة من مفاخره ، وميزة يمتاز بها على غيره من الأديان ، ولا يحملني على إثبات هذه المفخرة إلا أن بعض أعداء الإسلام يزعم أنه عدو بحث الحر ، ويدعي أن هذا هو السبب في تأخر المسلمين ، وهذا غرض شريف أستحق عليه الإصاف ، وجهاد في سبيل الله أستحق عليه التأييد .

ومن العلماء من اعترض على ما ذكرته في مسألة صفوان بن أمية ، فذكر أن إمهال النبي صلى الله عليه وسلم له لم يكن لبحث وينظر ، فيجىء إسلامه عن اقتناع بالدليل ، ومعرفة بالحقيقة ، لأن كثيرا من سادة ريش كان على بينة من الإسلام ، ولم يكن ينكره إلا حسدا وكبرا ، وكان صفوان منهم ، فلم يكن طلبه المهلة ليعرف الحقيقة ، وإنما كان ليتغلب على شهوته ، ويدخل الإسلام بعد أن يهني قلبه من الأحقاد والإحزن ، وجوابي على هذا أنه لا دليل على أن صفوان كان على بينة

من أمر الاسلام ، وإنما كان يشكره حسداً وكبرا ، وأنه لو سلم هذا لكان أدل على غرضي مما ذكرته في مقالى ، لأن إمهال المعاند أدل عليه من إمهال غير المعاند ، ولهذا اتفقوا على أن المعاند غير معذور ، واختلفوا في عذر غير المعاند .

ثم ذكر أنه لو سلم أن صفوان لم يكن معاندا فهل يكون معذورا لأنه يطلب الحقيقة ، ومن مات وهو يطلب الحقيقة يكون معذورا ؟ وذهب الى أن صفوان لو مات فى تلك المهلة مات مشركا ، ولم يكن معذورا ، لأن الآيات التى ظاهرت النبى صلى الله عليه وسلم وأيدت دعوته لم تكن فى كهف من الكهوف ، ولم تكن فى أقصى الارض ، حتى يتطلب اليقين بها زمنا ، وإنما كانت بين أيديهم ، وملء أسماعهم وأبصارهم . وجوابى على هذا أن وضوح الأدلة يختلف باختلاف الأشخاص ، فرب شخص يصل الى دليل فى يوم ، ولا يصل غيره إليه إلا فى شهر أو أكثر ، ولو كانت تلك الأدلة لا تتطلب زمناً عند صفوان بن أمية لما أمهله النبى صلى الله عليه وسلم تلك المدة .

ثم ذكر أن من قال من مسلمة الفتح حين انهزم المسلمون فى حنين — الآن بطل السحر — كان إسلامه مدخولا ، ولست أدري أى داع الى تكلف هذا ؟ لأن كثيرا من الناس يسلم إسلاما صحيحا ثم يرتد ، ولا مانع من هذا فى مسلمة الفتح ، كما لا مانع من أن إسلام بعضهم كان مدخولا . ومن العلماء من ذكر أن قتال مانعى الزكاة ينافى ما ذكرت ، لأنهم كانوا متأولين فى منع الزكاة ، ومع هذا قاتلهم أبو بكر فى خلافته ، ولم يقم وزناً لرأيهم فى منع الزكاة ، وجوابى على هذا أن أبا بكر لم يخالف بهذا ما ذكرت من احترام الاسلام لحرية الرأى ، وإن شئعت عليه بهذا طائفة من الشيعة ، وذهبت الى أن قتاله لهم كان ظلماً وعسفاً .

لأنهم كانوا يرون أن الخطاب في قوله تعالى في الآية (١٠٣ ، من سورة التوبة) (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكّن لهم) خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه ليس لأحد من التطهير والتزكية والصلاة على المتصدق مثل ماله ، وإنما لم يكن في هذا مخالفة لما ذكرت لأن الزكاة حق الفقراء في مال الأغنياء ، ويجب على ولي الأمر أن يأخذه من الأغنياء إذا منعوه ، ولو أدى هذا إلى استعمال القوة معهم ، كما يجب عليه أن يرد كل مال مسلوب إلى صاحبه ، ولو أدى هذا إلى استعمال القوة مع السالب له ، ولهذا أعطت القوانين العادلة للحكومات حق استعمال القوة مع من يمتنع من دفع الضرائب ، لأن الضرائب لازمة للقيام بمصالح الرعية ، فيترتب على الامتناع من دفعها مفسد كثيرة ، والزكاة في الإسلام مثل الخراج والضرائب في غيره ، ولهذا أعطى الإسلام للخليفة حق استعمال القوة مع من يمنعها من المسلمين .

وقد ذهب أبو حنيفة إلى أن مانع الزكاة لا يقتل ولا يقاتل ، بل تؤخذ الزكاة منه قهرا ، ولا يحل دمه الا اذا انتصب للقتال ، كما فعل أبو بكر مع مانعي الزكاة في خلافته ، لأنه لم يقاتلهم الا عند ما انتصبوا لقتاله ، وقد ذكر العيني هذا في شرحه على صحيح البخاري ، وبهذا يثبت أن مانعي الزكاة في خلافة أبي بكر لم يقتصروا على منعها ، بل انتصبوا للقتال أيضا ، ومن يقاتل على رأيه لا يكون في قتاله مخالفة لما ذكرت من احترام الاسلام لحرية الرأي ، لأن من يرى من الرعية رأيا لا يصح له أن يقاتل حكومته عليه ، وإلا صار الأمر فوضى ، وضاعت فائدة قيام الحكومة ، لأن لها حق الطاعة على كل فرد من رعيها ، ولو كان له رأى يخالفها فيه .

وقد ذكر الخطابي أن العرب في أول خلافة أبي بكر كانوا ثلاثة أصناف : صنف ارتد عن الاسلام ، لكنه لم يعد إلى جاهليته الأولى ، بل صار إلى أديان اخترعها لهم أمثال مسيلية وسجاح . وصنف عاد إلى جاهليته الأولى من عبادة الأوثان وإنكار الأديان والشرائع من صلاة وزكاة وغيرهما . وصنف فرقوا بين الصلاة والزكاة ، فأقروا بالصلاة وأنكروا فرض الزكاة ووجب أدائها إلى الإمام ، وقد انفقت كلمة الصحابة على كفر الصنفين الأولين ، كما اتفقوا على إسلام الصنف الثالث - مانع الزكاة - ولا شك أن هذا لم يكن منهم إلا احتراماً لرأيه في منها ، ولشبهته التي استند عليها فيما سبق ، وقد اختلفوا في قتاله بعد اتفاقهم على إسلامه ، فرأى جمهور الصحابة أنه لا يحل قتاله مادام يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وكان هذا مغالاة منهم في الانتصار لحرية الرأي ، ورأى أبو بكر وحده أن يقاتلهم على حق الفقراء ، كما يقال غيرهم على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وكان هذا هو الرأي الصواب ، فرجع جمهور الصحابة إليه ، وقاتلوا مانعي الزكاة كما قاتلوا المرتدين من العرب ، ولكن القتال لم يجر مع مانعي الزكاة كما جرى مع المرتدين ، بل جرى على نظام قتال البغاة والخوارج من المسلمين ، لأنهم منهم في نظر الفقهاء ، ولقاتلهم أحكام خاصة مذكورة في كتب الفقه .

متى كان التحدى بالقرآن ؟

اختار الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم من بين العرب خاتما لرسله ، وقد اقتضى هذا أمرين فى المعجزة التى اختص بها : أولهما أن تكون من جنس ما اشتهر العرب بالنبوغ فيه ، لأن معجزة كل رسول تكون من جنس ما نبغت فيه أمته . وثانيهما أن تكون معجزة باقية على الدهر ، لتبقى بقاء الشريعة التى أريد ختم الشرائع بها ، كما أريد ختم الرسل بالرسول الذى اختير لتبليغها ، وقد اقتضى هذا وذاك أنه يكون القرآن الكريم معجزة النبى صلى الله عليه وسلم .

وقد كان بعض الرسل يبعث ومعه معجزته ، فيبتدىء أمره بها ، ويبلغها لقومه مع تبليغ رسالته ، كما أرسل موسى الى فرعون ومعه معجزة العصا ، وقد طلبها من ربه حين اختاره لرسالته ، ليبلغها لفرعون حين يخبره أنه رسول الله اليه .

ولكن معجزة النبى صلى الله عليه وسلم وهى القرآن لم يكن لها هذا الشأع ، لأنه لم ينزل عليه دفعة واحدة يتم بها إعجازه ، وإنما كان أول ما نزل عليه منه حين اختير لرسالته هو هذه الآيات من سورة العلق (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم) فلم يكن معه من معجزة القرآن حين بعث ما يتحقق به التحدى المطلوب فى كل معجزة ، وقد نزل القرآن هكذا مفرقا فى ثلاث وعشرين سنة ، وكان ينزل عليه فيها على حسب الأحوال والوقائع .

وإنما لم يكن لدى النبى صلى الله عليه وسلم معجزة حين بعث كما كان

لدى موسى وغيره من الرسل ، لأنه لم يتهيب رسالته كما تهيّبها موسى وغيره ، ولم يطلب أن يؤيد بمعجزة كما طلب موسى من ربه ، كما قال تعالى في الآيات ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، من سورة الشعراء (قال ربّ إني أخافُ أن يكذبون ، ويضيقُ صدري ولا ينطقُ لساني فأرسلْ إلى هارونَ ، ولهم على ذنبٍ فأخافُ أن يقتلون ، قال كلا فاذهبا بآياتنا إنّنا معكم مستمعون) وإنما لم يطلب النبي صلى الله عليه وسلم من ربه معجزة حين بعث لأن قومه لم يبلغوا من القوة والطغيان ما بلغه فرعون موسى ؛ فلم يخف منهم ما خافه موسى منه ، ولأنه كان له منزلة بينهم قبل بعثته حتى كانوا يلقبونه الأمين فرجا أن يؤمنوا به من غير معجزة ، وهذا إلى أنه أريد في رسالته التي ستختم بها الرسالات أن تسلك طريق التلطف في الدعوة ، ليدعن الناس إليها بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولا تنتهي بآية عذاب كما انتهت الرسالات قبلها ، ولهذا لم تبدى بالتحدى كما ابتدأ غيرها من الرسالات ، وإنما أتى التحدى بعد ابتدائها بزمن ساينته بعد ، وكان تحديا يناسب معجزة القرآن ، وليس فيه إنذار بآية عذاب كما كان التحدى في غيره من المعجزات .

وكان من ذلك التلطف في الدعوة أن أخذ النبي صلى الله عليه وسلم في أول أمره يدعو في السر ، ولا يدعو إلا من آمن من أنس منه قبولا لدعوته من أهله وأصدقائه ، فأمنت به زوجته خديجة . وابن عمه علي بن أبي طالب ، وكان غلاماً صغيراً قد تربى في بيته ، وكذلك آمن به أقرب أصدقائه أبو بكر الصديق ، ولم يزل يتلطف في دعوته ويدعو إليها سرا ، حتى آمن به نحو أربعين من قومه ، وكانوا يكتمون إسلامهم عن قومهم حتى لا يؤذوهم ، فإذا أراد أحدهم الصلاة ذهب

إلى بعض شباب مكة فصلى به مستخفياً ، وكان لهم ناد يجتمعون به سرا ، وهو دار بأصل الصفا للأرقم بن أبى الأرقم ، وهو أحد من بادر من قومه إلى الإسلام ، وقد مكث يدعو سرا ثلاثاً أو أربعاً من السنين ، فیتلطف بهذا فى دعوته ، ولا يتحدى بها قومه ، فلم يكن فى حاجة إلى معجزة يتحدى بها من يعارضه .

ثم أمر بعد هذا أن ينتقل من السرية إلى الجهر ، فتلطف فى الدعوة الجهرية كما تلطف فى الدعوة السرية ، وابتدأ فيها بعشيرته الأقربين من عبد المطلب ، فجمعهم وعرض عليهم أن يؤمنوا به ، فتكلموا كلاماً ليناً ، ولم يشدد عليه إلا عمه أبو لهب ، فإنه قال لهم : خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب ، فإن أسلمتوه ذلتكم ، وإن منعتموه قتلتم . فقال له أخوه أبو طالب : والله لنمنعنه ما بقينا . وقد وفى أبو طالب بما قال ، ولكنه بقي على دينه ولم يؤمن به .

ولما جهر بالدعوة لم يطالبه قومه بآية عليها فى أول الأمر ، بل كانوا يسخرون منه ويستهزئون به فى مجالسهم . فإذا مر عليهم يقولون : هذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء ولا يهتمون فى أمره بأكثر من ذلك ، استخفافاً بدعوته ، واستهانة بأمرها ، لأنهم كانوا يظنونها سخابة صيف ، ولا يظنون أنه سيكون لها شأن بينهم .

فلما تاب عليها وأخذ فى عيب آلهتهم وتسفيه عقولهم ، ثارت حمية الجاهلية فى رؤوسهم ، وأخذتهم الغيرة على آلهتهم ، ولكنهم مضوا على استخفافهم بأمره ، فلم يتوجهوا إليه أن يكف عنهم ، ولم يطالبوه بمعجزة يؤيد بها دعوته ، بل ذهبوا إلى عمه أبى طالب فشكوه إليه ، فردهم رداً جميلاً ، فانصرفوا عنه ينتظرون ما يفعل معه .

ولكن أباطالب لم يفعل معه شيئاً ، وتركه يمضى فى دعوته كما يريد ،

ولا يكف عن عيب آلهتهم وتسفيه عقولهم ، فذهبوا إلى عمه أي طالب يشكونه مرة أخرى ، وقالوا له : إما أن تكفه أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين . فدعاه أبو طالب وقال له : يا ابن أخي ، إن القوم جاءوني فقالوا لي كذا ، فأبقي على نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق . فظن أن عمه خاذله ، فقال له : والله باعمّ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه . ثم بكى وولى ، فقال له أبو طالب : أقبل يا ابن أخي . فأقبل عليه ، فقال له : اذهب فقل ما أحببت ، والله لا أسلك .

فلما رأوا أبا طالب لا يجيبهم إلى منعه عن عيب آلهتهم وتسفيه عقولهم أخذوا يؤذونه ويؤذون أصحابه ، فلقوا شيئاً كثيراً من أذاهم ، ولكنهم صبروا على ما لا قوة منهم ، وثبتوا على إيمانهم ، ولم يكف النبي صلى الله عليه وسلم عن عيب آلهتهم وتسفيه عقولهم ، فاجتمعوا للشورى في أمره ، فقال لهم عتبة بن ربيعة العبدنسي : يا معشر قريش ، ألا أقوم لمحمد فأكله وأعرض عليه أموراً عليه يقبل بعضها فنعطيه إياها ، ويكف عنا ؟ فأجابوه إلى ذلك ، فقام إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي في المسجد ، فقال له : يا ابن أخي ، إنك منا حيث علمت ، من خيارنا حسباً ونسباً ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرسّقت به جماعتهم ، وسفست أحلامهم ، وعبت آلهتهم ودينهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضاً .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قل يا أبا الوليد أسمع . فقال عتبة : يا ابن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت من هذا

الامر ما لا جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثر منا مالا ، وإن كنت تريد شرفاً سوّدناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد مملكةً كنّاك علينا ، وإن كان هذا الذي يأنيك رضى من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لقد فرغت يا أبا الوليد . فقال : نعم . فقال له : فاسمع منى . فقرأ عليه أول سورة فصلت (بسم الله الرحمن الرحيم ؛ حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون) الآيات إلى قوله (فإن أعرضوا فقل أندر أنكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا با أرسلتم به كافرون) .

فأمسك عتبة بفيه ، وناشده الرحم أن يكف عن ذلك ، فلما رجع عتبة سأله فقال لهم : والله لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر . يامعشر قريش ، أطيعوني فاجعلوه إلى خلوة بين الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن الكلام الذى سمعت نبأه فإن تصببه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فعزّه عزكم . فقالوا له : لقد سحرك محمد . فقال لهم : هذا رأى .

كل هذا وهم لا يطلبون منه معجزة يؤيد بها دعوته ، لأنهم لم يأسوا بعد من أمره ، فعرضوا عليه أن يشاركهم فى عبادتهم ويشاركونه فى عبادته ، فأنزل الله تعالى فى ذلك سورة الكافرون (قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا أتم عابدون ما أعبد) السورة .

ثم طلبوا منه أن ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذمّ الأوثان والوعيد الشديد ، فأتى بقرآن غيره أو يبدله . فأجابهم الله عن هذا في الآية (١٥) من سورة يونس (قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدَلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنْ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ) .

فلما رأوا أن هذه المطالب التي يعرضونها عليه لا تقبل منهم ، صاروا إلى تعجيزه بطلب المعجزات . وقد طلبوها متعنتين ، ولم يطلبوها ليؤمنوا بها ، وكان هذا بعد أن مضى زمن طويل على ابتداء بعثته إليهم ، وأول ماورد من هذا في الآية (٣٠٣) من سورة الأعراف (وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَاطٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) وسورة الأعراف هي السورة التاسعة والثلاثون من السور التي نزلت بمكة .

ثم ورد عنهم ذلك في الآيتين (٧٨ و٨٠) من سورة الفرقان (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ، أَوْ يُنَزَّلُ إِلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا) وسورة الفرقان هي السورة الثانية والأربعون من السور التي نزلت بمكة .

ثم ورد عنهم ذلك في الآية (١٣٣) من سورة طه (وقالوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوْ لَمْ يَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى) وسورة طه هي السورة الخامسة والأربعون من السور التي نزلت بمكة .

ثم ورد عنهم ذلك في الآيات (٤٨، ٤٩، ٥٠) من سورة القصص (فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوْ لَمْ

يكفروا . أأوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل
كافرون ، قل : فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما
أتبعنه إن كنتم صادقين ، فإن لم يستجيبوا لك فاعلم انما
يتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ
اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) وسورة القصص هي السورة
التاسعة والأربعون من السور التي نزلت بمكة ، وقد زادت هذه الآيات
فيها على الآيات السابقة بأن فيها ما يشبه أن يكون ابتداء تحدٍّ بالقرآن ،
وهذا في قوله (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه)
وهو يعنى بذلك القرآن والتوراة .

ثم ورد بعد ذلك تحد صريح بالقرآن في الآية ٨٨ ، من سورة
الإسراء (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل
هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) وسورة
الإسراء هي السورة الخمسون من السور التي نزلت بمكة ، وكان نزولها
في حادثة الإسراء ، وكانت هذه الحادثة قبل الهجرة بسنة ، أى في
السنة الثانية عشرة من البعثة ، فتكون هي السنة التي اتخذ فيها التحدى
بالقرآن شكله الصريح ، وكان هذا بعد أن نزل منه خمسون سورة ،
وهو قدر صالح للتحدى في أول الأمر ، وقد تحداهم به كله ، ثم تدرج
بعد هذا في التحدى على ما يأتي :

فقد تحداهم بعد ذلك بسورة مثل القرآن في الآية ٣٨ ، من سورة
يونس (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من
استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) وسورة يونس هي
السورة الواحدة والخمسون من السور التي نزلت بمكة .

ثم تحداهم بعد ذلك بعشر سور من القرآن في الآية ١٣ ، من
سورة هود (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله

مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مَنْ اسْتَعْطَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) وسورة هود هي السورة الثانية والخمسون من السور التي نزلت بمكة . ثم عاد فتحدهام بالقرآن كله في الآيتين (٣٣ ، ٣٤ ، من سورة الطور (أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ، فَلْيَاذَعُوا بِحَدِيثِ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ) وسورة الطور هي السورة السادسة والسبعون من السور التي نزلت بمكة . ثم تحدهام بعد ذلك بسورة واحدة من القرآن في الآيتين (٢٣ ، ٢٤ ، من سورة البقرة (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّاسَ الَّتِي وَقَوْدُهَا النَّاسُ وَالْحَجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) وسورة البقرة هي أول سورة نزلت بالمدينة بعد الهجرة من مكة .

وكان هذا آخر تحد ورد في القرآن ، وقد اختتم بمثل ما ابتدئ به من إعلان عجزهم صريحاً عن الإتيان بمثل ما تحدوا به ، ولـكنهم لم يكفوا بعد هذا التحدي عن الطعن في القرآن ، فكانوا مرة يقولون إن النبي صلى الله عليه وسلم يتلقاه من بعض الأعاجم من أهل الكتاب ، كما قال تعالى في الآية (١٣) من سورة النحل (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) ومرة كانوا يدعون أنهم بقدرهم أن يأتوا بمثله ، كما قال تعالى في الآية (٣١) من سورة الأنفال (وَإِذَا تُمْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) وهذا تبجح قبيح منهم ، ولو كان ادعائهم صحيحاً لآتوا به فعلاً ، ولكن هذا أسهل وسيلة لهم في الفصل في تلك الخصومة التي أعباهم أمرها ، وقد بلغ من أمرهم في محاولة الفصل فيها أن عرضوا على النبي

صلى الله عليه وسلم كل شيء حتى الملك ، فلو كان ذلك في قدرتهم لأنوا به فعلا ، ولفصلوا به في تلك الخصومة من غير أن يكلفوا أنفسهم شططا . وهذا أمر يعرف منه السر في عجزهم عن الإتيان بمثل القرآن ، وهو أمر لم يلتفت إليه أحد في ذلك التحدى ، مع أنه من أقطع الأدلة على أن عجزهم عنه كان عجزاً حقيقياً ، وهذا الأمر هو أن أعظم ما يمتاز به القرآن شيئان : أولهما وأقواهما أنه كتاب هداية ورشد ، وثانيهما أنه في أعلى أسلوب عربي ، وهذان الشيئان لا بد أن يدخلوا جميعاً في التحدى بالقرآن ، وإن كان المشهور بين الناس أن التحدى به كان في الشيء الثاني فقط ، مع أن التحدى به في الهداية قد سبق التصريح به في بعض صور التحدى ، وهذا في قوله تعالى في الآيتين السابقتين من سورة القصص (قل فاتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه) .

وإذا كانت الهداية لا بد من دخولها في التحدى بالقرآن ، وكان لها من التأثير في إعجازه مثل ما كان لأسلوبه ، فإنها كانت تنقص أولئك المشركين ، لأنهم كانوا منغمسين في الشرك والضلال ، وهذا باطل لا يمكنهم أن ينصروه بقوة بياهم ولو بلغت ما بلغت . ولا شك أن أمر الأسلوب لم يكن يهمهم بقدر ما يهمهم نصر باطلهم . ولكنهم كانوا من هذا أمام أمر مستحيل كل الاستحالة ، ولا ينفعهم فيه ما امتازوا به من فصاحة وبلاغة ، لأن الباطل لا يمكن أن ينقلب حقاً ، والضلال لا يمكن أن ينقلب هداية ورشداً ، وهذه هي العقبة التي وقفت دونهم في ذلك التحدى ، والصخرة التي عجزت أمامها محاولاتهم ، فوقفوا حيارى لا يدرون ما يصنعون ، ولا يجدون إلا أن يداروا عجزهم بالطعن في القرآن ، فيقولوا فيه مرة إنه سحر ، ومرة إنه شعر ، ومرة إنه أساطير الأولين ، إلى غير هذا مما طعنوا به فيه .

ولا يعد هذا منهم إلا تهرباً مما تحدوا به ، على أن طعنهم في القرآن

بذلك أدعى إلى قيام الحجة عليهم ، لأنه لو كان سحراً أو شعراً أو من أساطير الأولين لكان من جنس كلامهم ، ولم يكن من عند الله تعالى ، فيكون الإتيان بمثله مما يدخل في مقدورهم ، ولا يكون فيه ما يعجزهم . ولما كان طعنهم على القرآن بذلك فيه حجة على عجزهم ، رأوا أن يصروا على ما كانوا يطلبونه من الآيات قبل تحديهم بالقرآن ، ليداروا بهذا عجزهم عنه ، كما حكى الله عنهم في الآية ٣٢ من سورة الأنفال (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنَّا كَانُوا هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) وقد نزلت هذه السورة بالمدينة بعد سورة البقرة ، وقد أجابهم الله عن هذا في الآية التالية للآية السابقة بقوله (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) فأخبرهم بأنه لا يريد أن يأخذهم بآيات العذاب كما أخذ الأمم قبلهم ، وإنما يريد أن يمهلهم ليؤمنوا كما آمن بعضهم ، واستغفر من ذنبه بالشرك وغيره من آثامهم ، ليختم بهم رسالته ، ويجعلهم آخر الأمم التي تحمل دعوته ، وكان من الواجب عليهم أن يقفوا عند التحدى بالآية التي اختيرت لهم ، وأن يحاولوا الإجابة عن تحديهم بها أو يقرؤا بعجزهم عنها ، وإذا كانت هذه الآية في نظرهم أقل من آيات الوسل السابقين ، فإن هذا أيضاً مما تنهض به الحجة عليهم ، لأنه مما يهون أمر تحديهم بها ، فيكون الواجب عليهم قبول هذا التحدى ، لا التهرب منه بطلب آيات أخرى . ولو أنهم تأملوا قليلاً لعرفوا أن هذه المعجزة هي أنسب المعجزات لهم ، لأن الله قد أراد بقاءهم لاهلاكهم ، فلا يناسبهم إلا هذه المعجزة التي يقترن التحدى فيها بمحاولة الإقناع بالدليل ، ولا يقتصر الأمر فيها على التحدى الذي لا يكون فيه إعداؤهم وإمهالهم ، وما كان أجدرهم بعد هذا أن يكتفوا بها ، ولا يطلبوا آية أخرى غيرها .

متى ابتدأت معارضات القرآن

ذكر القرآن الكريم كل ما طعن به المشركون فيه ، وكل ما طعنوا به في النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكر طعنهم في القرآن بأنه سحر ، وبأنه شعر ، وبأنه أساطير الأولين ، وذكر طعنهم في النبي صلى الله عليه وسلم بأنه ساحر ، وبأنه شاعر ، وبأنه مجنون ، إلى غير هذا من طعنهم فيه وفي القرآن الكريم ، وقد ذكرها للرد عليها ، وإظهار خطئهم فيها ، ولم يذكر القرآن الكريم المعارضات التي حاول بعضهم أن يعارض القرآن بها ، ويظهر قدرته على الإتيان بمثل بعض سورته ، وقد يكون هذا لأن هذه المعارضات مخترعة على من نسبت إليهم من مسيئلة وغيره ، وقد يكون هذا لسبب آخر اقتضى عدم ذكر شيء عنها في القرآن الكريم ، كأن تكون هذه المعارضات لم تظهر في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، أو لم تظهر إلا قبيل وفاته ، بعد أن ختم نزول القرآن ، وتمت سورة على النحو الذي أراد الله لها ، والحقيقة أن قريشاً قوم النبي صلى الله عليه وسلم كانوا أول من تحدّى بالقرآن الكريم من العرب ، فتهيبوا أن يعارضوه ، وخافوا أن يظهر عجزهم إذا أرادوا معارضته ، وقد كانوا أرقى العرب في العلم والعرفان ، وأعلام ذوقاً في البلاغة والفصاحة ، حتى إن الشعراء كانوا يتحاشون إليهم فيما يقولونه من شعر ، ويرجعون إليهم في بيان منزلته في القوة والضعف ، فكانوا أعرف من غيرهم بأمر القرآن ، حتى إن بعضهم كان يسمع بعض آياته فتأخذ عليه نفسه ، وتملك عليه عقله ، فيشهد لها بقوة التأثير ، ويدعن لها إذعان الناقد البصير ، ولكنه كان يغلبه عليه تعصبه لدينه ، وتهيبه مخالفة قومه ،

فلا يتبع هذا إيمانه بصدق النبي صلى الله عليه وسلم .

ولهذا تركوا معارضة القرآن باللسان ، وآثروا عليها معارضته بالسيف ، فاضطروا النبي صلى الله عليه وسلم أن يقابلهم بالسيف كما قابلوه ، ولم يفعل هذا إلا بعد أن مكث بينهم في مكة ثلاث عشرة سنة يدعوهم فيها بالموعظة الحسنة ، ثم يتحداهم بمعجزة هادئة لا تقطع عليهم طريق التروى والتفكير ، بل تحاول أن تأخذهم إلى الإيمان في هوادة ورفق ، فيأبون إلا أن يقابلوا اللين بالشدة ، وإلا أن يجعلوا الحكم للسيف فيما بينه وبينهم ، فقامت بسبب هذا حروب كثيرة صارت بالفريقين إلى المغالبة بالقوة ، وشغل المشركون بها عن تلك المعجزة التي تحدوا بها ، لأنهم أرادوا أن يفصلوا ما بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم بقوة السيف ، لا باستعمال فصاحتهم في معارضة ما تحدوا به ، ولا باستعمال عقولهم في تأييد دينهم ، والدفاع عن آلهتهم ، لئلا يظهر في هذا الميدان عجزهم .

وقد قضى النبي صلى الله عليه وسلم حياته بعد الهجرة إلى المدينة في حربهم ، ولم يتم له النصر عليهم إلا في السنة الثامنة من الهجرة ، وكان هذا قبل وفاته بنحو سنة ، وقد دخلوا في دينه أفواجا بعد أن تمت الغلبة له عليهم ، لأنهم عرفوا أن قوة عقيدته هي التي غلبتهم في ميدان القتال ، لا قوة السيف الذي شرعه في وجوههم حين قابلوه بسيوفهم ، لأن سيوفه كانت أقل من سيوفهم عددا ، وكان أنصاره أقل عددا من أنصارهم ، وقد دخل غيرهم من العرب في الإسلام تبعا لهم ، لأنهم كانوا أصحاب الزعامة الدينية بينهم ، فانتشر الإسلام في جميع جزيرة العرب ، ودان له أهلها إلا قليلا منهم .

وهنا ظهر متنبئان في جهتين نائيتين من جزيرة العرب ، ولم يكن

لها دعوة دينية ظاهرة ، ولكنهما كانا في الحقيقة طالبي ملك ، فأرادا أن ينازعا الإسلام فيما صار إليه من السيادة على جزيرة العرب ، وتوسلا إلى هذا بأن زعما أنهما نبيان يوحى إليهما من السماء ، كما يوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، لعلهما ينجحان في أمرهما كما نجح في أمره ، وقد ظهرا في جهتين نائيتين من البادية يستغلان فيها جهل سكانها ، ويشيران فيها عصبية الجاهلية فيما بين قبائل اليمن وربيعة ومضر .

فأما أحدهما فهو الأسود النعنع - نسي من اليمن ، وقد ظهر فيه لبشر عصبية قبائله على الإسلام الذي ظهر بين عرب الشمال من مضر ، وكان يسمى عهلة بن كعب ، ويقال له ذو الحمار ، لأنه كان يزعم أنه يأتيه ذو حمار ، وكان يُشعَّبُ ويُرَى الجاهل الأعاجيب ، ويسبي بمنطقه قلب من يسمعه ، وكان قد أسلم قبل أن يدعى النبوة ، ثم ارتد وزعم ذلك الزعم ، فكاتبه أهل نَجْرَان ، واتبعه بعض قبائل اليمن ، ومكث أربعة أشهر يعميث فساداً في تلك الجهات ، ثم قتلته امرأته ، لأنه كان قد قتل أباهما ، فقتلته به ، وكان هذا قبل وفاة النبي صلى الله عليه بيوم وليلة . وأما ثانيهما فهو مُسيلمة الكذاب من بني حنيفة ، وهم من قبائل ربيعة ، وكانوا يسكنون اليامة ، فظهر بينهم لبشر عصبيتهم أيضاً على الإسلام الذي ظهر في مضر ، وكان قد أسلم قبل أن يدعى النبوة ، ثم ارتد وادعى النبوة انفراداً ، ثم ادعاها مشاركة مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد وفد عليه في المدينة ، وطلب منه أن يقتلها الأمر بينهما ، فكذب به فيما ادعى من النبوة ، وأبى أن يجيبه إلى ما طلب منه ، فرجع إلى قومه ينتهز فرصة يشق فيها عصا الطاعة . فلما مات النبي صلى الله عليه وسلم واستخلف بعده أبو بكر ، رآها فرصة سانحة لشق عصا الطاعة ، فخرج في قومه بني حنيفة ،

وأظهر بينهم دعوى النبوة ، وزعم أنه يوحى إليه من السماء ، وأتى في هذا ببعض معارضات للقرآن ، فلم تظهر إلا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان هذا هو السبب في عدم ورود شيء من القرآن في شأنها ، كما ورد فيما طعن به فيه ، وفيما طعن به في النبي صلى الله عليه وسلم . ومن هذه المعارضات ما يأتي :

(١) يا ضفدع ابنة ضفدع ، نقّسى ما تنقّسين ، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين ، لا الشارب تمنّعين ، ولا الماء تكدّرين .
(٢) ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق وغشى .

(٣) ألم تر أن الله خلق النساء أفواجا ، وجعل الرجال لهن أزواجا ، فنولج فيهن لإبلاجا ، ثم نخرج ما شئنا لإخراجا ، فينتجن لنا إناجا .
وقد تناول ثمامة بن أثال الحنفي نقد المعارضة الأولى عند ظهورها ، فذكر ابن سعد في طبقاته (ج ٥ ص ٤٠١) أنه لما ظهر مسيلة قام ثمامة بن أثال في قومه فوعظهم وذكّرهم ، وقال : إنه لا يجتمع نبيان بأمر واحد ، وإن محمداً رسول الله لا نبي بعده ، ولا نبي يشرك معه ، وقرأ عليهم (حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ، ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير) هذا كلام الله ، أين هذا من - يا ضفدع نقّسى ما تنقّسين ، لا الشارب تمنّعين ، ولا الماء تكدّرين - والله إنكم لتروْنَ أن هذا كلام ما خرج من إل .

فهو في هذه المعارضة يخاطب الضفدع كأنها مخلوق يتعالى على خالقه ، ف يريد أن يضع من أمرها ، ويحط من شأنها ، وهى أهون من هذا كله ، ولا تستحق هذا الاهتمام بالتهوين من أمرها ، وهى مخلوق

ضعيف لا يتعالى ولا يتكبر ، فخطابه بما خاطبه به لا يطابق حاله ،
والبلاغة لا تكون إلا حيث يطابق الكلام مقتضى الحال .

وأما المعارضة الثانية فهو لم يأت فيها من أسرار القدرة الإلهية
ما يتعالى إدراكه على البشر ، بلى أتى من آثارها على الحبلى ما يعرفه
كل إنسان ، ويدركه بحسه ، ولا يكاد يأخذ بنفسه ، وأين هذا من
قوله تعالى فى الآية د ه ، من سورة الحج (يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي
رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ
مُضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنَقُرُّ فِي الْآرْحَامِ مَا نَشَاءُ
إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلًا - الآية) فهذا هو الإعجاز الإلهى ،
وهذه هى الأسرار التى لا يصل إليها إنسان أمى كحمد صلى الله عليه
وسلم ، أما تلك المعارضة فتذكر أمراً ظاهراً لكل الناس ، ولا يتعالى
إدراكه على أحد من البشر .

وأما المعارضة الثالثة فقد أتى فيها بما ياباه الخلق الكريم ، وذكر
عبارات مستهجنة لا يصح التصريح بها ، وأين هى من قوله تعالى فى
الآية د ١٨٩ ، من سورة الأعراف (هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ
وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِمَسْكَنٍ إِلَيْهَا) فما أسماها كناية لا يصل
إليها أحد من البشر ، وإنما هو أدب الله الذى يسمو به على خلقه .
هذا ولم يلبث مسيلة أن قتل فى خلافة أبى بكر ، ولم يترك أثراً
يذكر بعده إلا تلك المعارضات التافهة للقرآن ، وهى معارضات
استغل فيها جهل قبيلته بالبادية ، وقد عمد فيها إلى تقليد القرآن الكريم ،
وهذا مما يؤخذ عليها أيضاً ، لأن المعارضة لشيء لا بد أن تبتدع أسلوباً
جديداً غير أسلوبه ، ولا يصح أن يكون أسلوبها تقليداً له ، لأنها لا تأتى
فيه بجديد يحسب لها ، ويصل فى الإبداع الى مثل ما وصل إليه ماتعارضه .

معجزة مجهولة

من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم

كم للنبي صلى الله عليه وسلم من معجزات لا تنحصر ، وتظهر في كل وقت لمن يتأمل ويتدبر ، وهذه ميزة معجزاته على معجزات غيره من الأنبياء ، لأن معجزاتهم كانت محسوسة يدركها الحس بسهولة ، أما معجزاته فتعلو على الحس ، لأن أفقها أعلى من أفقه ، فلا تدرك إلا بعد تأمل العقل ، وما أسمى المعجزات التي يختص العقل بإدراكها ، ولا يسمو الحس إلى تناولها .

وهذه معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم ، يغفل الناس عن أمرها ، وتمر عليهم كل يوم فلا ينتبهون لها ، وقد مضت عليها أجيال من الدهر تحقق من أمرها ، وتقوى من شأنها ، فلا يزيد أمر الأجيال إلا ثباتا ، ولا يفيدها توالي الحقب إلا قوة ، حتى أن التحدث الآن عنها ، لتظهر للناس جليلة واضحة . لا يعترها شيء من الشك ، ولا يخفيها عنهم شيء من اللبس . وكيف يعترها شيء من ذلك وقد مضى عليها ست وستون وثلاثمائة سنة بعد الألف^(١) وهي قائمة تتحدى الزمن أن ينال منها ، وتتحدى أهله في الأرض من شرقها إلى غربها . ومن شمالها إلى جنوبها ، فيعجز الزمن وأهله عن تحديها ، وسيظل عاجزا عن تحديها إلى ما شاء الله تعالى .

وقد وردت هذه المعجزة في آية من القرآن لا يشك في أمرها ، لأن آيات القرآن قد حفظت منذ نزولها في الصدور وغيرها بما

(١) كان هذا في زمن كتابة هذا البحث أي في سنة ١٣٦٦ هـ

حفظت فيه . ثم حفظت في المصاحف عقيب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم تزد فيها بعد هذا آية ، ولم تنقص منها آية ، بل ظلت ثابتة لا يعثر بها تغيير ولا تبديل . وهذه الآية التي وردت فيها تلك المعجزة هي الآية ٤٠ ، من سورة الأحزاب (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم . ولكن رسول الله وخاتم النبيين . وكان الله بكل شيء عليماً) .

فقد قطعت هذه الآية في أمر النبوة بحكم لا سبيل للبشر أن يقطعوا به ، ولا يمكن عاقل منهم أن يورط نفسه بمثل هذا الحكم فيه ، بل يرى من مصلحته أن يتركه للزمن ، والألّا يقطع فيه بنفي أو إثبات ، لأنه لا يدخل في علمه ، ولا يمكنه الحزم بشيء فيه ، فكيف إذا كان يدعي النبوة ، وهي أسمى مراتب البشر ، فلا يمكن صاحبها أن يرضى بالتورط في مثل ذلك الحكم ، وأن يعرض نفسه للكذب إذا لم يصدق حكمه في المستقبل ، لأن مثل هذا لا يرضاه عاقل من عامة الناس لنفسه ، فلا يمكن أن يرضاه لنفسه من يتسامى إلى مرتبة النبوة .

لقد ختم في هذه الآية عهد النبوة ، وحكم بأنه لا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، فكيف يجروا بشر على الحكم في مثل هذا وهو من أمر الغيب ؟ وهل يمكن أن يحكم بهذا محمد صلى الله عليه وسلم من نفسه ؟ وقد مضى قبله آلاف لا تحصى من السنين ، يتوالى فيها الأنبياء نبياً بعد نبي ، من آدم إلى شيث ، إلى إدريس ، إلى نوح ، إلى إبراهيم ، إلى إسماعيل وإسحاق ، إلى يعقوب ، إلى يوسف ، إلى موسى وهارون ، إلى داود ، إلى سليمان ، إلى عيسى بن مريم ، وبين هؤلاء الأنبياء أنبياء لا يحصون عدا ، لأن هناك من الأنبياء من لم يرد لنا حديث عنهم ، كما قال تعالى في الآية ١٦٤ ، من سورة النساء

(ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً) .

وكان كل نبي من هؤلاء الأنبياء يبشر بمن يأتي بعده منهم ، ويأمر أتباعه بانتظار بعثته ، ويحثهم على الإيمان به حين ظهوره ، وقد وردت بهذا بشارات كثيرة في الكتب المنزلة على أولئك الأنبياء ، فوردت في صحف إبراهيم ، ووردت في توراة موسى ، ووردت في زبور داود ، ووردت في إنجيل عيسى ، ووردت في غير هذا من الكتب المنزلة على الأنبياء .

فلو كان الأمر في ذلك الحكم لمحمد صلى الله عليه وسلم لكان في كل ما سبق ما يدعوه إلى العدول عته ، لأنه يخالف ما تواتر عليه الأجيال قبله ، ويشذ عما تعاقبت عليه السنين من بدم الخليقة إلى عهده ، والبشر في أحكامهم لا يخرجون على حكم الأجيال قبلهم ، ولا يشذون عما جرت عليه سُنَّة الله من قديم الزمن ، ومحمد صلى الله عليه وسلم من البشر ، فكان عليه بمقتضى هذا أن يجرى على سنة الأنبياء قبله ، فلا يدعى أنه خاتم الأنبياء ، بل يبشر بنبي يأتي بعده كما بشر الأنبياء قبله ، ليروج بهذا أمره بين الناس ، لأنه يستن فيه سُنَّة من قبله من الأنبياء ، ولا يشذ فيه عنهم ، فيكون هذا ادعى إلى أن يرى الناس أنه نبي مثلهم ، ولا سيما أن للناس شغفاً بالبشارات والتنبؤات ، وميلاً إلى تصديق من يأتي بها من النكته أن ونحوهم .

فلا يمكن أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم هو الذي ادعى أنه خاتم الأنبياء ، وإنما هي من الله الذي يملك أمر النبوة ، فينزل بها ملائكته من السماء إلى الأرض إذا شاء ، ويقطعها إذا شاء قطعها ، فهو الذي أنزل هذه الآية بذلك الحكم ، فحكم فيها بأن محمداً صلى الله

عليه وسلم خاتم النبيين ، وبأن شريعته خاتمة الشرائع ، وقامت بهذا معجزة تتحدى الزمن وأهله ، فلا يجرؤ أحد على تحديها ، ولا يحاول مخلوق نقضها ، وقد مضى عليها الآن ست وستون وثلثمائة سنة بعد الألف ، يتجدد فيها ذلك التحدى سنة بعد سنة ، وجيلا بعد جيل ، فلا يزيد هذا تلك المعجزة إلا قوة في تحديها ، وصدقا في حكمها ، لأن مثل هذه المدة الطويلة يكفي لظهور كثير من الأنبياء ، وقد كان الأنبياء قبلها يتوالى ظهورهم . بل كان بعضهم يعاصر بعضا ، فما بالهم قد انقطعوا في هذه المدة الطويلة بعد محمد صلى الله عليه وسلم ؟ وما بال الزمن قد صار لا يتطلع إلى نبوة كما كان يتطلع ؟ وما بال أهله قد صاروا لا ينتظرون نبوة كما كانوا ينتظرون ؟

لقد فتح في الإسلام باب الاجتهاد بعد قفل باب النبوة ، وجعل العلم فيه هو الوسيلة إلى الاجتهاد . فأمر الناس فيه بطلب العلم والحكمة ، ولم يأت مثل هذا في دين قبله . فصار العلم فيه هو الوسيلة إلى الإصلاح بعد الدين ، لأن الدين هو الأساس ، والعلم يقيم بناءه في الإصلاح على أساسه . فاكتفى الناس بالعلم في إصلاح أحوالهم ، وانقطع أملهم في نبوة تظهر لهم ، ولم يختص المسلمون بانقطاع هذا الأمل في النبوة ، بل صار انقطاع الأمل فيها طابع هذا العصر ، ولا فرق الآن في هذا بين المسلمين وغيرهم ، وإنه لأقوى دليل على صدق تلك المعجزة .

ولا أنكر أنه يوجد قليل من الناس ينتظر نبوة جديدة ، وقد مضى زمن طويل على انتظارهم ، حتى صرنا إلى عصر انقطع أمل الناس فيه من تلك النبوة ، وصارت تلك القلة فيه كقطرة في بحر لا يعابها ، ولا يقام وزن لانتظارها نبوة جديدة ، لأن الأمر قد استقر الآن على الاكتفاء بالنبوات السابقة ، فعكف أهل كل دين على دينهم ،

وقاموا في حدود شرائعهم يتولون إصلاح أحوالهم بأنفسهم ،
ولا ينتظرون في هذا وحيا من السماء ، ولا يترقبون نبيا يبعث إليهم .
ولا أنكر أيضا أن الأسود العنسي ادعى النبوة في حياة
النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو في هذا يتحدى دعواه أنه خاتم النبيين ،
ولكنه فشل في ادعائه ، وقتلته امرأته وهي أولى الناس بتصديقه ،
وكان قد قتل أباه فقتلته به .

كما لا أنكر أن مُسَيْلَمَةَ ادعى النبوة في حياة النبي صلى الله عليه
وسلم أيضا ، ولكنه فشل في دعواه كما فشل الأسود العنسي ، فقتل
في خلافة أبي بكر ، وبطل أمره كأن لم يكن .

وإني أقولها الآن أقوى كلمة : إنه إذا كان لنا أن نسكت عن التحدى
بتلك المعجزة عقب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم . وبعد هذا بعشر
سنين أو مائة سنة أو خمسمائة سنة ، فإنه لا يصح لنا الآن أن نسكت
عن ذلك التحدى بتلك المعجزة بعد أن مضى عليها ست وستون وثلاثمائة
سنة بعد الألف ، وسيمر عليها مثل هذا وأكثر منه وهي قائمة تتحدى
الزمن ، وتتحدى أهله في سائر أنحاء الأرض .

وإنها لمعجزة لها أكبر شأن في تاريخ البشر ، لأنها فصلت فيه بين
عهدين ، فقطعت عهدا توالى الأنبياء فيه منذ الخليفة على القيام بإصلاح
حال الأرض ، وتولى الإصلاح فيه وحى السماء . وأقامت عهدا انقطع
فيه ذلك الوحي من الأرض ، وترك فيه أمر البشر لأنفسهم ، بعد أن
أدى الوحي رسالته بينهم .

ولا شك أن مثل هذا لا يمكن أن يقوم به بشر ، وإنما هو حكم
الله تعالى في تاريخ الأرض ، ومعجزة خطيرة من معجزات النبي
صلى الله عليه وسلم .

إسلام قریش عام الفتح

بالاختیار لا بالسيف

إن مما يثير أوربا وأمريكا على الإسلام في عصرنا جملهما بكثير من أصوله الحققة العادلة ، رمن هذا أن أهلها يظنون أن الإسلام لم يقم إلا بالسيف ، فإذا عاد ثانياً إلى قوته استعمل السيف ثانياً في حمل الناس على الإيمان به ، وأخذ من لا يؤمن به بالظلم والعسف ، فيعيش العالم في جو من الإرهاب ، ويحرم من الحرية الدينية التي يتمتع الآن بها ، وبسبب هذا الظن الخاطيء يعملون على إضعاف المسلمين في سائر أنحاء الأرض ، حتى لا تعود لهم دول قوية كالدول التي كانت لهم قبل ضعفهم ، ومن أثر هذا الظن الخاطيء ما عمدت إليه بعض المجلات الأمريكية في عام ١٩٤٨م من تصوير نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في صورة ترمز إلى ما يظنونه في دعوته ، وهي صورة زنجي راكب على فرس وفي يده سيف يهدد العالم به .

وقد يعذر أهل أوربا وأمريكا في هذا الظن الخاطيء في الاسلام ، لأنها لا تجد من المسلمين من يبلغه إليها على حقيقته ، ويبين لها كيف قامت الحروب التي وقعت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنهم لم تكن لاكره الناس على الاسلام ، وإنما كانت لأجل تمسكين أهله من حريتهم الدينية ، ودفع من يريد فتنهم في دينهم وصرفهم عنه بالقوة ، فكانت حرباً للدفاع عن العقيدة ولتأييد الحرية الدينية ، ولم تكن للاعتداء على هذه الحرية ، أو لاكره الناس على الاسلام ، لأن الإسلام نادى بهادعة

صريحة أنه لا إكراه في الدين ، كما قال تعالى في الآية - ٢٦٥ - من سورة البقرة (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم) كما أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بهذه الصورة التي تهدد سلام العالم ، لأنه لم يدع أحد إلى السلام كما دعا إليه ، ولهذا اختار لدينه اسم الاسلام ، وهو مأخوذ من مادة السلام ، ولهذا أيضا اختار اسم السلام للتحية المعتادة بين الناس في تلاقيتهم كل وقت ، فلا يلتقي مسلم شخصا إلا ألقى عليه هذه التحية السكرية - السلام عليكم - ليكون اسم السلام شعارا للمسلمين في غدوهم ورواحهم ، وفي كل وقت يمر بهم ، ويكون أكثر الأسماء شيوعا بينهم ، ليعيشوا فيما بينهم في صفاء ، ويعيشوا فيما بينهم وبين غيرهم في سلام ، ولا يضمروا لأحد شرا ، ولا يبطنوا له سوءا ، وقد أتى بها القرآن دعوة عامة صريحة إلى السلام في الآية - ٢٠٨ - من سورة البقرة (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) .

وإته لـ يكون أهل أوروبا وأمريكا أشد عذرا في ذلك الظن الخاطيء إذا وجدوا من بعض المسلمين من يظن هذا مثلهم ، ويرى أن الاسلام لم يقم إلا بالسيف ، وأن هذا هو سبيله في كل وقت ، وأن المسلمين يجب عليهم أن يقوموا بالهجوم على أعدائهم في كل عام ، فإذا رأى هذا أهل أوروبا وأمريكا ازدادوا ضغنا وحقدا على الاسلام ، وازدادوا خوفا منه إذا عادت إليه سطونه ، فتتفق كلتهم على التشديد على المسلمين ، ويعملون على عدم تمكينهم من استعادة قوتهم ، لئلا يستعملوها في الدعوة إلا دينهم ، ويمحوا بها

ما يتمتع العالم الآن به من حرية دينية ، وبهذا يضر الجهلة من المسلمين
بدينهم أشد ضرر ، ويؤلبون عليه أهل أوربا وأمريكا وهم أصحاب
القوة والسلطان في عصرنا ، وليس هذا جهلا بالدين فقط ، بل هو
جهل شديد بالسياسة وأصولها ، وجهل بما يلزم لمصلحة الاسلام فيها ،
ونحن لا نقول هذا جبنا وخوفا على الاسلام ، لأنه دين الشجاعة
الحقة ، والقوة العادلة ، فلا يهمه أن يتألب عليه أهل الأرض جميعا ،
أو يتفق عليه الناس كلهم ، لا أهل أوربا وأمريكا وحدهم ، ولو أنه قام
بالسيف حقا لما أهمنا أن يتألب أحد علينا بسببه ، ولكن الحقيقة أن
الاسلام لم يقم بالسيف ، وإنما قام على الدعوة بالحكمة والموعظة
الحسنة ، كما قال تعالى في الآية - ١٢٥ - من سورة النحل (أدعُ
إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن)
فإذا خالفنا هذه الحقيقة لم يقتصر ضررها على تأليب أهل أوربا
وأمريكا علينا ، بل اتخذ هذا حجة على الاسلام في عصر يقدس حرية
الرأى والعقيدة ، ولا يبيح استعمال القوة في الدعوة إلى عقيدة من
العقائد ، لأن العقيدة اعتقاد بالقلب وإذعان به ، وسبيل هذا الإقناع
بالدليل ، لا أخذ الناس إليه بالقوة .

وقد دعاني هذا كله إلى اختيار الكتابة في موضوع إسلام قریش
عام الفتح ، لأنه قد يظهر لبعض الناس أنه قام بالسيف ، ولم يكن عن
طواعية واختيار منهم ، وإسلام قریش كان نقطة تحول في تاريخ
الإسلام ، لأن العرب كانوا ينتظرون إسلامها لزعامتها الدينية بينهم ،
فلما أسلمت دخلوا في الإسلام أفواجا ، ولم يمض إلا قليل حتى شمل
الإسلام بلاد العرب جميعا ، فإذا كان إسلامها قد قام بالسيف كان
إسلام العرب قد قام به أيضا .

وإنما كان إسلام قريش بحيث يظهر لبعض الناس أنه قام بالسيف ، لأن قريشا كانت على رأس القائمين بمناوأة الاسلام ، وقد أقامت على مناوأتها له عشرين سنة ، اضطهدته فيها وهو ضعيف بينها في مكة ، ثم تولت حربه حينما صار له قوة بالمدينة ، إلى أن انتصر عليها عام الفتح بقوة السيف ، فبادر أهلها إلى الدخول فيه ، وتركوا عبادة الأصنام التي أصروا عليها في تلك السنين .

فهنا قد يظن بعض الناس أن قريشا لم تسلم إلا بقوة السيف ، وأنه لو لم تفتح عليها مكة لبقيت على شركها ، ولم تدخل في الاسلام دفعة واحدة كما دخلت ، كأنها كانت منه على ميعاد هذا الفتح .

ولا بد لتفنيد هذا الظن الخاطئ من الرجوع الى الآيات التي أذن فيها للمسلمين بقتال قريش ، لأنها هي التي تبين لنا حقيقة الغاية من هذا القتال ، فإذا كانت لإدخال قريش في الاسلام صح ذلك الظن ، وإذا لم تكن لأجل إدخالها فيه كان ذلك الظن خطأ .

لقد أذن للمسلمين بقتال قريش في الآيتين — ٣٩ ، ٤٠ — من سورة الحج (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حقٍ إلا أن يقولوا ربنا الله ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) والآيتان صريحتان أن قتال قريش لم يكن لأجل إدخالها في الاسلام ، وإنما كان لدفع ظلمها عن المسلمين ، وتمكينهم من الحرية الدينية التي حرمتهم منها ، إذ قامت باضطهادهم لتكرهم على ترك دينهم ، ثم أخرجتهم من ديارهم بغير حق حين ثبتوا على هذا الدين ، ولم

يخضعوا لاضطهادها وتعذيبها ، ثم آذت من قعد به الضعف منهم عن
الهجرة إلى المدينة ، فأقام بينها في مكة .

فلما أذن للمسلمين بقتال قريش قاموا بها حربا يريدون منها الدفاع
عن عقيدتهم ، وهم في هذا يخالفون قريشا التي كانت تقصد من حربها
إرجاعهم عن دينهم ، وسلمهم حريتهم في اختيار الدين الذي تطمئن إليه
نفوسهم ، فلم يدخل في غرضهم من حربها أن يكرهوها على الاسلام ،
كما دخل في غرضها أن تسكرهم على الرجوع عنه .

وقد انتهت هذه الحرب بين الفريقين بصلح الحُدَيْبِيَّة في السنة
السادسة من الهجرة ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي سعى في
هذا الصلح ، ولم يكن سعيه فيه عن عجز منه ، وإنما كان إشفاقا عليها
أن تفنيها الحرب ، ومطاولتها لها إلى أن يهديها الله إلى الاسلام ، وقد
تساهل في شروط ذلك الصلح ما تساهل لهذا الغرض الكريم ، حتى
كان تساهله سبباً في غضب كثير من أصحابه ، واسكنه لم يزل بهم
حتى أَرْضاهم .

ثم كان منها أن نقضت هذا الصلح في السنة الثامنة من الهجرة ،
فسار النبي صلى الله عليه وسلم في هذه السنة إلى حربها ، لا ليدخلها في
دين الاسلام ، وإنما ليعاقبها على قتال حلفائه من خزاعة ، ويظهر
الكعبة من عبادة الأصنام ، ويرجعها إلى ما كانت عليه في عهد إبراهيم
وإسماعيل عليهما السلام ، قبلة خالصة للتوحيد وأهله ، ومثابة للناس
وأمتنا ، فلا تستبد قريش بها ، ولا تمنع المسلمين من الحج إليها ، وهم أولى
بها منها ، لأنها قامت على أساس التوحيد الذي يدعو المسلمون إليه ،
ولم تقم على أساس عبادة الأصنام التي تدعو قريش إليها .

وقد ظهر أثر ذلك واضحا حين ظهر عجز قريش عن دفع جيش

المسلمين ، وأراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن ينادى فيها بالأمان ، فلم يجعل الدخول في الإسلام شرطاً لأمانها ، ولم يطلب فيه منها أن تؤمن به ، بل جعله أماناً مطلقاً من غير قيد ولا شرط ، ونادى مناديه - من دخل داره وأغلق بابها فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن - ولم يذكر في ندائه أن من أسلم فهو آمن ، لأنه يريد إيمانا خالصاً عن طواعية واختيار ، ولا شائبة فيه لقهر وإكراه .

ثم ظهر أثر ذلك واضحاً أيضاً حين جمعهم بعد إسلامهم وقال لهم : ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . فقال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء . فعفا عنهم عفواً مطلقاً من غير قيد ولا شرط أيضاً ، ولو كان قتاله من أجل إسلامهم لا شرطه في العفو عنهم ، لأن من يقاتل لغاية يحرص عليها عند النصر ، ولا يعفو عن انتصر عليه إلا إذا وصل إليها .

ثم ظهر أثر ذلك واضحاً أيضاً بعد ذلك العفو ، فقد أخذ بعضهم بروعة ذلك الفتح وعظمته فأسلم ، وأخذ بعضهم بكرم ذلك العفو فأسلم ، وبقي عدد قليل لم يؤخذ بروعة الفتح ولا بكرم العفو فلم يسلم ، وكان عدده يبلغ بضعا وثمانين رجلاً ، فبقوا على شركهم ليسكون فيه أكبر دلائل على أن غيرهم أسلم باختياره ، ولم يؤخذ بقوة السيف الذي حصل به فتح مكة ، وقد بقي هذا العدد على شركه إلى أن أسلم طائعا في غزوة حُنين ، وكان قد خرج فيها يقاتل في صف المسلمين ، فهداه الله بعد الانتهاء منها إلى الإسلام ؟

الوحدة الإسلامية

ألقى صاحب السباحة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الكريم الزنجاني كبير مجتهدى الشيعة بفارس ، ورئيس مجلسهم الأعلى ، محاضرة بدار جمعية الشبان المسلمين بمصر ، في الدعوة الى الوحدة الإسلامية ، رأى فيها أن هذه الوحدة لا تتم إلا بإزالة ما بين الطوائف الإسلامية من فروق في العقائد ، وتقريب شقة الخلاف بينها حتى تنحصر في الفروع وحدها ، وذكر أن الخلاف بين هذه الطوائف في العقائد خلاف لفظي ، فمن السهل إزالته ، وجمع كلمة الأمة به

ولاشك أن السعى في الوحدة الإسلامية مما يجب على كل مسلم في عصرنا ، ولكن الطريق الذي رآه الأستاذ الزنجاني صعب التحقيق ، لأن الخلاف بين الطوائف الإسلامية ليس خلافا لفظيا كما ذهب اليه ، وإنما هو خلاف حقيقي في بعض الأصول والفروع ، ومن هذا ما وقع من الخلاف بين أهل السنة والشيعة في عصمة الأئمة ، فهو خلاف حقيقي في أصل من أصول العقائد ، لأن أهل السنة يرون أن العصمة خاصة بالأنبياء عليهم السلام ، والشيعة يرون أنها لا تختص بالأنبياء ، ويعتقدون أن الأئمة من أهل البيت معصومون أيضا ، وقد اعترض بهذا على الأستاذ الزنجاني وهو يلقي محاضرته ، فأجاب بان عصمة الأئمة عند الشيعة تختلف عن عصمة الأنبياء ، لأنها في الأئمة بمعنى العدل والثقة واستبعاد وقوع الخطأ منهم ، أما عصمة الأنبياء فهي بمعناها الحقيقية ، لأنهم معصومون عن الخطأ قطعا ، والفرق ظاهر بين المعنيين ، وإني

أرى أنه لو كان ذلك معنى عصمة الأئمة عند الشيعة لما صح تسميتها
عصمة ، ولما كان هناك فرق بين هؤلاء الأئمة وغيرهم من أصحاب
العدالة والثقة ، ومثل هذا لا يمكن أن يذهب إليه الشيعة .

ومن ذلك أيضا ما وقع بين أهل السنة والشيعة في خلافة أبي بكر
وعمر ، فهو خلاف حقيقى أيضا ، وكذلك الخلاف بينهم في مسألة
الصفات وكثير من مسائل علم الكلام ، لأن الشيعة يوافقون في كثير
منها المعتزلة ، ويخالفون أهل السنة .

فلا يصح مع هذا كله أن نطمع في بناء الوحدة الإسلامية على
أساس إزالة ذلك الخلاف ، لأنه خلاف حقيقى لا لفظى ، والذي
أراه أن يقوم بناء هذه الوحدة على أساس التسوية بين الخلاف في
الأصول والخلاف في الفروع ، فنقبل الخلاف الأول ويتسع له صدرنا ،
كما نقبل الخلاف الثانى ويتسع له صدرنا ، حتى يكون الخلاف بين
أهل السنة والشيعة في العقائد كالخلاف بين الشافعية والحنفية من
أهل السنة في الفروع ، وكذلك الخلاف بين بقية الطوائف في العقائد ،
على أن أهل السنة اختلفوا أيضا في العقائد ، وأنقسموا فيها الى سلف
وخلف ، وأنقسم الخلف منهم الى أشعرية وماتريدية ، فلم يفرق هذا
الخلاف بينهم ، بل كان شأنه بينهم كشأن خلافهم في الفروع الى حنفية
ومالكية وشافعية وحنبلية ، فيجب أن يكون هذا أيضا شأن الخلاف
بين أهل السنة الشيعة وغيرهم من الطوائف المختلفة في العقائد ، فإذا
ذهب الشيعة مثلا الى عصمة الأئمة فليكن لهم في هذا رأيهم ، ماداموا
لا يذهبون الى أنهم أنبياء ، لأن مثل هذا هو الذى يخالف صريح
الإسلام ، وإذا ذهب الشيعة أيضا الى أن علياً أحق بالخلافة من أبي بكر

وعمر ، فليكن لهم في هذا رأيهم ، وليكن لنا رأينا في صحة خلافتهما ، ولا يصح ان يكون مثل هذا سبباً في التفريق بيننا ، واضطغان نفوس طائفة منا على طائفة

فإذا قام الجدل بيننا في العقائد قام على الإقناع بالدليل ، فإذا وصلنا به إلى الاتفاق على عقيدة أخذنا بها جميعاً ، وإذا لم يمكن أن نصل به إلى اتفاق على عقيدة اختلفنا فيها بما عند كل طائفة من دليل عليها ، وعذر بعضنا بعضاً فيها ، لأن الدليل لم يصل فيها إلى الوضوح الذي يؤدي إلى الاتفاق عليها

ولنبعد في جد الناعن التعصب للرأى ، والطعن في الدين ، والرمى بالكفر ، ولنجعل الخلاف في الرأى سبب تواصل ، لا وسيلة تقاطع ، وليقم الخلاف بيننا على أنه خلاف بين أخوين في الدين ، تجمعهم كلمة الإسلام ، وتظلمهما راية الحنيفة السمحة ، وقد عد الإسلام الخلاف في الرأى سنة من سنن السكون ، فقال تعالى في الآية - ١١٨ - من سورة هود (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) وإذا كان هذا شأن الخلاف في الاسلام كان لله تعالى حكمة في أمره ، وكان لنا مصلحة فيه ، كما هو الشأن في كل ما سنه الله لنا ، وقد أبيع الاجتهاد في الاسلام أيضاً ، والاجتهاد يستلزم الخلاف في الرأى ، وأن يكون أحد المختلفين مصيباً والآخر مخطئاً ، وقد جعل الاسلام لمن يجتهد ويصيب أجرين ، ولمن يجتهد ويخطئ أجر واحد ، والدين الذي يصل إلى الإثابة على الخطأ في الاجتهاد لا يصح أن يكون الخلاف فيه مصدر تشاحن ، بل يجب أن يكون سبب تواصل وتراحم ، ولم يفرق الاسلام في إباحة الاجتهاد بين أصول وفروع ، بل أطلق النبي

صلى الله عليه وسلم الأمر في هذا إطلاقاً ، وذكر أن من اجتهد فأصاب
فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد ، ولم يقيد هذا بفروع
أو أصول .

وهذا هو الأساس الصحيح لقيام الوحدة الإسلامية ، فلنتخذ
وسيلة إليها ، ولنقبر ذلك الماضي القائم على التدابر والتقاطع ، ولنقبر
معه تلك الكتب المتدابرة المتقاطعة في العقائد ، وهي الكتب التي
يدرسها أهل السنة في الجامع الأزهر بمصر ، والكتب التي يدرسها
الشيعة في معهد النجف بالعراق ، ولناخذ في التقريب بين هاتين
الجامعتين العظيمتين ، ومن هذا التقريب أن يدرس فقه الشيعة
بالجامع الأزهر ، وفقه أهل السنة بمعهد النجف ، ويتبادل في هذا
الأساتذة بين الجامعتين ، ليتم التعارف بيننا فيهما ، وتحقيق تلك
الوحدة المطلوبة في عصرنا^(١) .

(١) نشر هذا التعقيب على تلك المحاضرة بالعدد (١٧٩) من مجلة الرسالة ، فترجم
إلى الأردنية بمجريدة هندية ، وأيده أستاذ من معهد النجف بالعدد (١٨٨) من مجلة الرسالة

أبو هريرة

ألف الأستاذ الفاضل عبد الحسين الموسوي العاملي كتاباً باسمه (أبو هريرة) وهو عالم من علماء الشيعة ، وقد أراد أن يدرس أبا هريرة رضي الله عنه في هذا الكتاب درساً علمياً بريئاً من التعصب المذهبي ، ولكنه لم يكد يبتدىء كتابه حتى وقع فيما فر منه ، وذكر في أول صفحة منه أنه لا ينظر إلى أبي هريرة في ذاته ، وإنما ينظر إلى تقديس أهل السنة له ، لأنهم قدسوه بناء على مذهبهم في تعديل كل صحابي ، واعتقاد أن الصحبة عصمة لا يمس صاحبها بجرح وإن فعل ما فعل ، ثم ذكر أن الصحبة فضيلة جليلة ولكنها غير عاصمة ، وأن الصحابة كان فيهم العدول والأولياء والأصفياء والصادقون ، وكان فيهم مجهول الحال ، وكان فيهم المنافقون من أهل الجرائم والعظائم ، كما قال تعالى في الآية - ١٠١ - من سورة التوبة (ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم) فعدوهم حجة ، ومجهول الحال نكبين أمره ، وأهل الجرائم لا وزن لهم ولا لحديثهم ، وقد درس أبو هريرة على ذلك الأساس ، ليثبت أنه كان منافقاً كذاباً مجرمًا ، فيكون عنده من الفريق الثالث ممن يطلق عليه اسم الصحابة ، ولا يكون هناك وزن له ولا لحديثه .

ولاشك أن هذا غلو في أمر أبي هريرة كغلو الشيعة في تشيعهم لأهل البيت ، لأن الغلو يدعو إلى الغلو ، كما يدعو الاعتدال إلى الاعتدال ، ونحن أهل السنة شيعة أيضاً لعلي وأهل بيته ، ولكننا

شيعة معتدلة نسلك في تشيعنا لهم مذهباً وسطاً ، فلا نغالي فيهم كما تغالي الشيعة ، ولا نكرهمهم كما تـكرهمهم الخوارج .

وكذلك نسلك مذهباً وسطاً في أمر الصحابة ، فلا نغالي في بغضهم حتى نرمي من مات النبي صلى الله عليه وسلم راضياً عنهم بأنهم منافقون مجرمون ، ولا نغالي في حبهم حتى نذهب إلى أنهم معصومون من الجرح ، لأن العصمة عندنا لا تكون إلا مع الوحي والنبوة ، والصحابة ليسوا بأنبياء ولا يوحى إليهم ، والشيعة هم الذين يعتقدون في أنمتهم هذا الاعتقاد ، فيذهبون إلى عصمة كل إمام من أهل البيت .

فالصحابة عندنا رجال كسائر الرجال ، يجوز عليهم الخطأ كما يجوز الصواب ، وتجاوز عليهم المعصية كما تجوز عليهم الطاعة ، ولهذا كان بعض المجتهدين من أهل السنة إذا خالفهم في حكم من الأحكام قال : هم رجال ونحن رجال . فالصحابي قد يخطئ في اجتهاده ، ولكنه يعذر فيه كما يعذر كل مجتهد إذا أخطأ ، والصحابي يخونه سمعه فيخطئ في حديثه ، ولكن هذا لا يحيط من قدره ، لأن الخطأ جائز على كل البشر ، ولا فرق في هذا عند أهل السنة بين أبي هريرة وغيره من الصحابة فلا يصح حينئذ أن نطعن في دين أبي هريرة ولا غيره من الصحابة الذين مات النبي صلى الله عليه وسلم وهو راض عنهم ، ولا يصح أن نرمي واحداً منهم إذا أخطأ في حديثه أو اجتهاده بأنه كان منافقاً مجرمًا ، لأن إكرامنا لمن رضى النبي صلى الله عنه إكرام له ، وتصويب لما كان يضعه فيه من ثقته به ، وقد كان أبو هريرة رضى الله عنه من لصق الصحابة به في حياته ، فيهمنا أن يكون رضاه عنه في موضعه ، وألا يكون رضاه عن منافق كان يخدعه في دينه ، وهذا لا يمنعنا من تخطئة

أبي هريرة فيما يثبت أنه أخطأ فيه ، ولكن مع صون اللسان عن السب والشتم والطعن في الدين ، لأن هذا ليس في شيء من النقد الصحيح ، وليس في شيء من أدب الجدل في الدين والعلم ، وقد نهانا الله تعالى عن ذلك في جدالنا لمن يخالفنا في الدين ، فقال تعالى في الآية - ١٠٨ - من سورة الأنعام (ولا تنسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم) وقال تعالى في الآية - ٤٦ - من سورة العنكبوت (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن) ولا شك أن المسلم أحق بمراعاة هذا الأدب في الجدل مع أخيه المسلم.

وقد ثبت أنه كان هناك رواية يضعون الحديث على أبي هريرة ، كإسحاق ابن نجيم الملقب ، وعثمان بن خالد العثماني ، وابنه محمد ، وغيرهم ، فلتتجه اليهم أولا فيما يؤخذ على أبي هريرة ، لأن المؤاخذة قد تكون عليهم لا عليه.

وهذا حديث أخذه صاحب الكتاب على أبي هريرة وجعله سببا لرميه بالنفاق والكفر ، فقد روى عن أبي هريرة أنه دخل على رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة عثمان بن عفان ويدها مشط ، فقالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندي أنفا رجلت شعره ، فقال لي : كيف تجدني أبا عبد الله - يعني عثمان - قلت : بخير . قال : أكرمه ، فإنه من أشبه أصحابي بخلقنا .

فذكر صاحب الكتاب أن هذا حديث باطل ، لأن رقية ماتت في غزوة بدر ، وأبو هريرة إنما أسلم بعد فتح خيبر ، وقد بادر صاحب الكتاب بحكم بأن أبا هريرة هو الذي اختلق هذا الحديث ، وبهذا يكون عنده كذابا منافقا مجرما ، مع أنه كان يجب عليه أن ينظر فيمن رواه عنه أولا وهذا الحديث قد جاء في مستدرك الحاكم بروايتين : جاء في إحداهما

محمد ابن أحمد بن سعيد الرازى وهو من الضعفاء ، والمطلب بن عبدالله ، وهو من الضعفاء أيضا، ومحمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان ابن عفان، وقد ضعفه النسائي والبخارى . وجاء فى الثانية عبد المنعم بن إدريس عن وهب بن منبه ، وهو قصاص لا يعتمد عليه ، وقد ذكر أحمد بن حنبل أنه كان يكذب على وهب بن منبه ، وذكر البخارى أنه ذاهب الحديث .

وقد ذهب الحاكم مع هذا الى تصحيح سند هذا الحديث ، وله فى هذا رأى ، ولكنه لم ير فى أبى هريرة ما رآه صاحب ذلك الكتاب ، بل قال : ولا أشك أن أبا هريرة رحمة الله تعالى روى هذا الحديث عن متقدم من الصحابة أنه دخل على رقية رضى الله عنها ، لكنى قد طلبته فلم أجده فى الوقت . فلم يتهم على أبى هريرة كما تهجم صاحب الكتاب ، واكتفى بحمل الحديث على الخطأ .

على أن تصحيح الحاكم لسند هذا الحديث لا يفيد صاحب الكتاب بشىء ، لأن أبا هريرة يدخل فى سنده عند الحاكم ، ثم إن غير الحاكم لا يصحح هذا السند ، فقد جاء هذا الحديث فى كتاب التاريخ الصغير للبخارى (ص ١٠٠) فذكر إسنادَه إلى المطلب بن عبد الله عن أبى هريرة ، ثم قال : ولا يعرف للمطلب سماع من أبى هريرة ، ولا تقوم به الحجة . فأعله بالانقطاع ، ويجب أن يضاف إلى هذا أن الحاكم مطعون فيه بأنه يروى ما لا يعقل ، وبأن فى كتابه كثيرا من الموضوعات

في السيرة النبوية

براعة الجاسوسية الإسلامية

في غزوة الأحزاب

قد يفهم كثير من الناس أن نظام الجاسوسية بما لا تقره الشريعة الإسلامية ، لأنه قد ورد النهي عن التجسس في قوله تعالى في الآية - ١٢ - من سورة الحُجُرَات (وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا) والحقيقة أن التجسس المنهى عنه في الآية هو ما يكون بين الأفراد ، ليعرف بعضهم أسرار بعض من غير أن يكون هناك داع إلى ذلك ، لأنه من الفضول المرذول ، ومثله يضر في الغالب ولا ينفع ، أما نظام الجاسوسية في الدولة فإنه مما لا غنى لها عنه لا في سلم ولا في حرب ، ولا يمكن الإسلام أن يضيق فيه على المسلمين ، وأن يقف بهم مكتوفي الأيدي أمام ما يلاقونه من تجسس أعدائهم عليهم ، بل اللاتق بسماحته ومرونته أن يبيح لهم مثل ذلك التجسس ، حتى يعرفوا به خفايا ما يدبر لهم من أعدائهم ، فلا يؤخذوا به على غفلة ، بل يقابلوه بتدبير يقيهم شره ، وقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم في ذلك عيون تأتيه بخفايا أعدائه في الداخل والخارج ، وهو ما يشير إليه قوله تعالى في الآية - ٦١ - من سورة التوبة (وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذُنٌ قُلٍّ أذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ) .

ومن أروع ما كان من الجاسوسية الإسلامية ما وقع في غزوة الأحزاب ، وكانت قريش قد جمعت جموعا كثيرة من القبائل لغزو المدينة بقيادة أبي سفيان بن حرب ، وكان معه من الزعماء والقواد عيينة بن حصن سيد بني فزارة ، والحارث بن عوف سيد بني مُرَّة ، وحسي بن أخطب سيد بني النضير من اليهود .

وكان المسلمون قد حفروا خندقا كبيرا حول المدينة ، فلم يستطع

جيش أبي سفيان أن يقتحمه عليهم ، فاكتفى بأن أقام حصاراً حول المدينة ، حتى يلجئها إلى التسليم إذا طال الحصار عليها ، ثم أخذ كل من الفريقين يستعين بجواسيسه على الآخر ، لعله يحدث بينه من الفضل ما يقصر أمد هذا الحصار ، لأن أمره كان شاقاً على جيش أبي سفيان ، كما كان شاقاً على أهل المدينة من المسلمين ، وإنما شق على جيش أبي سفيان مع أنه كان هو الذي يقوم به ، لأنه كان بعيداً عن موطنه التي قام منها ، ولأن العرب لم تكن تعرف حرب الحصار ، ولم تكن بحيث تقوى على الصبر عليه ، وإنما كانت تعرف شتّى الغارة السريعة ، اتّـجـع منها بالأسلاب والغنائم ، وهو ما يشبه الآن الحرب الخاطفة.

وقد عمد أبو سفيان إلى أضعف موضع في دفاع المسلمين ، وكان فيه بنو قريظة من اليهود ، وكانوا لا يزالون على الوفاء بالعهد الذي كان بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم ، فسلط أبو سفيان جواسيسه عليهم ، وأرسل حُيَّ بن أخطب سيد بني النضير من اليهود إليهم ، فلم يزل بهم حتى حملهم على نقض العهد الذي كان بينهم وبين المسلمين ، وكان هذا ظفراً عظيماً لجاسوسية أبي سفيان على الجاسوسية الإسلامية ، وخطراً عظيماً على أهل المدينة ، وقد زاد في خطره أن المنافقين من أهلها كانوا على ميعاد من نقض بني قريظة لعهدهم ، لأنهم كانوا جواسيس بالمدينة للمشركين على قومهم ، والظاهر أنه كان هناك اتفاق بينهم وبين أبي سفيان أن يخرجوا على المسلمين في الوقت الذي يخرج فيه بنو قريظة ، فأخذوا يفرون من صفوف المسلمين ليقعوا الخلل والرعب فيها ، وكانوا يفرون من القتال إلى بيوتهم بحجة الخوف عليها من بني قريظة ، ليفر غيرهم من المسلمين أيضاً خوفاً على بيوتهم . فاشتد الأمر على المسلمين ، وزلزلهم ذلك الظفر من جاسوسية أبي سفيان زلزالاً شديداً ، ولم يكن هناك من سبيل إلا أن تقوم

جاسوسيتهم بعمل يعلو على عمل جاسوسية أبي سفيان ، ويحدث من
الفشل بين صفوفه مثل ما أحدث لهم من ذلك الفشل ، وكانت حالتهم
من الشدة بحيث تحتاج إلى عمل من جاسوسيتهم سريع حاسم ، فانتشرت
جواسيس المسلمين بين جيش أبي سفيان ، ووجهوا عملهم إلى زعماء
البادية الذين يقاثلون معه ، لأنهم لا يقاثلون إلا طمعا في الأسلاب والغنائم ،
فيكون من السهل إغراؤهم بالمال على الخروج على أبي سفيان ، وقد تمكنوا
بهذا من التأثير في عيينة بن حصن الفزاري والحارث بن عوف
المُرِّي ، حتى حملاهما على أن يذهبا في خفية إلى النبي صلى الله عليه وسلم ،
ليتفقا معه على ما يعطيه لهما إذا تركا القتال ورجعا بمن معهما من قبائلهما
وقد كان هذا عملا للجاسوسية الإسلامية أبرع من عمل جاسوسية
أبي سفيان ، لأن ذهاب عيينة والحارث في خفية إلى النبي صلى الله عليه وسلم
وسلم سيؤدي حتما إلى الخلل في جيش أبي سفيان ، حتى ولو لم يصلا
إلى الاتفاق مع النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنهما يقعان بهذا في خيانة
أبي سفيان ، فتفسد نفوسهما بعده ، ولا يكون حالهما في الإخلاص
له إذا رجعا من غير اتفاق كحالهما قبله ، ولا سيما إذا عملت الجاسوسية
الإسلامية على إشاعة ما عملاه في خفية بين جيشه .

فلما ذهب عيينة والحارث في خفية إلى النبي صلى الله عليه وسلم
عرض عليهما أن يقطعهم ثلث ثمار المدينة على أن يتركا القتال ويرجعا
بمن معهما ، فطلبا منه أن يقطعهما نصفها فأبى ، فرضيا بما عرضه عليهما
من الثلث ، وحينئذ أرسل إلى سعد بن معاذ وسعد بن عباد سيدي
الأوس والخزرج ، ليستشيرهما في أمر ما أقطعه لهما ، لأن الثمار ثمارهم ،
ولا يمكنه أن يقطع فيها دونهم ، فقالا له : يا رسول الله ، إن كان أمرا
من السماء فامض له ، وإن كان أمرا لم تؤمر به ولك فيه هوى ، فسمعا
وطاعة ، وإن كان هو الراي ، فما لهم عندنا إلا السيف .

فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم برأيهما، وقال لعينته والحارث: ازجعا بيننا وبينكما السيف . ولعله لم يكن يقصد من إتيانهما أن يعطيتهما شيئا، وإنما كان يقصد أن يوقعهما في خيانة أبي سفيان ، ليفسد نفوسهما عليه، ويوقع الخلل بهذا في جيشه ، ولا سيما إذا أشاعت الجاسوسية الإسلامية خبر خيانتهم فيه

ثم ساق الله تعالى بعد هذا للمسلمين جاسوسا من أعدائهم ، ليزيد به في عوامل الفساد بينهم ، فهدى نعيم بن مسعود الأشجعي من زعماء جيش أبي سفيان للإسلام ، وقد كتم إسلامه عن قومه وأبي النبي صلى الله عليه وسلم في خفية فأخبره به ، وعرض عليه أن يساعده بما يمكنه ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أنت رجل واحد ، وماذا عسى أن تفعل؟ ولكن خذل عنا ما استطعت ، فإن الحرب خدعة

فوافق النبي صلى الله عليه وسلم على كتمان إسلامه ، لئلا يمكنه أن يتم ما قامت به الجاسوسية الإسلامية من ذلك العمل البارع ، ولا شك أن عمله في التجسس سيكون أقوى من عملها، لأن المشركين ينظرون إليه كما ينظرون إلى كل زعيم من زعمائهم ، فيطمئنون إلى كل ما يأمر به ، ويشقون بكل ما يشير به عليهم

وكان من نعيم بعد هذا أن خرج إلى بني قريظة ، وكان لهم نديما ، فلما رأوه رحبوا به ، وعرضوا عليه الطعام والشراب ، فأخبرهم بأنه جاءهم لعير هذا ، وأنه يخاف عليهم إذا حاربوا محمدا أن تتركهم قريش له ، وليس لهم طاقة به ، وهم ليسوا أصحاب دار ، فإن رأوا نهزة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وأنه يرى أن يأخذوا رهنا من أشrafهم تكون ثقة بأيديهم قبل أن يحاربوا معهم ، فاستحسنوا رأيه ، وأخبروه بأنهم طالبون ذلك منهم ، فأمرهم بكتمان ما جرى بينه وبينهم

ثم تركهم وذهب إلى قريش ، فأخبر رؤساءها بأن بنى قريظة ندموا
على نقضهم عهدهم مع محمد ، وأنهم يريدون أن يرضوه بأخذ سبعين
من أشرف قريش ليكونوا رهائن عندهم ، ثم يقدموهم إليه ليقتلهم ،
فرضى بهذا منهم ، فصدق رؤساء قريش فيما قال . وقد طلب منهم أن
يكتبوا ما جرى بينه وبينهم

وكان بعد هذا أن أرسل أبو سفيان إلى بنى قريظة يدعوهم إلى
القتال غدا ، فقالوا لرسله : إن غدا السبت ، فلا نقاتل فيه ، ومع ذلك
فلا نقاتل حتى تعطونا رهائن منكم ، حتى لا نتركونا ونذهبوا إلى بلادكم
فتحقق أبو سفيان ومن معه كلام نعيم بن مسعود ، وانضم هذا
إلى ما كان من خيانة عيينة والحارث لأبي سفيان ، ففترقت قلوب
ذلك الجيش بعد اجتماعها ، ورأى أن أمه انقطع في الاستيلاء على
المدينة بعد أن كاد يصل إليه ، والفضل في هذا لبراءة الجاسوسية
الاسلامية ، ولسرعة ما قامت به في تلك الساعة الحرجة ، وقد كان
المسلمون في ذلك الوقت أهل كياسة وسياسة ، وأصحاب مرونة ولباقة ،
وهو ما ينقصنا اليوم في عصر تألب علينا فيه أعداؤنا ، واستحكمت
حلقاته علينا

ثم كان أن أرسل الله على ذلك الجيش ريحا باردة في ليلة مظلمة ،
فزادته هما على همه ، وأوقعت في قلوبهم رعبا شديدا ، فخافوا أن يبيتهم
المسلمون وبنو قريظة ، ولم يروا إلا أن يرحلوا عن المدينة في ليلتهم ،
فرحلوا عنها وهم في أشد ما يكون من الخوف ، وقد تركوا خالد بن
الوليد في جماعة ليحموا ظهورهم ، حتى لا يدهموا من ورائهم ، فنجا
المسلمون بهذا من شر عظيم ، وكان الفضل في نجاتهم لبراءة جاسوسيتهم ،
ولتوفيق الله تعالى لهم في أعمالهم ؟

من أسرار غزوة بدر

المعروف بيننا أن قوله تعالى في الآيتين - ٦٧ ، ٦٨ - من سورة الأنفال : (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَشْخَنَ فِي الْأَرْضِ تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) ، لولا كتاب الله من سبق لمسلم فيما أخذتم عذاب عظيم) نزل في أخذ الفداء من أسرى بدر ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد جمع أصحابه ليستشيرهم في أمرهم ، فقال له أبو بكر : يا رسول الله ، قومك وأهلك . استبقهم واستأنهم ، لعل الله أن يتوب عليهم ، وأخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار

وقال عمر : يا رسول الله ، كذبوك وأخرجوك ، فدعهم نضرب أعناقهم ، مكسبنا علياً من عقيل - أخيه - فيضرب عنقه ، ومكن حمزة من العباس - أخيه - فيضرب عنقه ، ومكني من فلان - نسيب له - فأضرب عنقه ، فإن هؤلاء أئمة الكفر

وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله ، أنظر واديا كثير الخطب فأدخلهم فيه ، ثم أضرمه عليهم نارا . وكان عبد الله شاعرا ، ومن عادة الشعراء المغالاة في أمورهم ، لغلبة العاطفة والخيال عليهم فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجهم ، ثم تركهم ودخل ، فقال ناس منهم : يأخذ بقول أبي بكر . وقال ناس منهم : يأخذ بقول عمر . وقال ناس منهم : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة

فلما خرج اليهم قال : إن الله لا يدين قلوب رجال حتى تكون
ألين من اللين ، ويشد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن
مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم ، قال (فمن تبعني فإنه مني) ومن عصاني
فإنك غفور رحيم) ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى ، قال (إن تعدّ بهم
فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) ومثلك يا عمر
مثل نوح ، قال (رب لا تذرني على الأرض من الكافرين دياراً)
ومثلك يا عبد الله بن رواحة كمثّل موسى ، قال (ربنا اطمس على
أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يرووا العذاب الأليم) ثم
قال : اليوم أنتم عالة ، فلا يفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق
فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم برأى أبي بكر في قبول الفداء ،
وهنا يروى الرواة عن عمر أنه لما كان الغد أتى النبي صلى الله عليه وسلم
فإذا هو وأبو بكر قاعدان يبكيان ، فقال : يا رسول الله ، أخبرني من
أى شيء تبكى أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد
بكاء نباكيت لبكائكما . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أبكى على
أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه
الشجرة — لشجرة قريبة منهم — فأزل الله عز وجل فيهم تينك
الآيتين السابقتين

فهل يصح أن يغضب الله عليهم لأخذهم الفداء ؟ وهم لم يأخذوه
إلا بعد أن أذن لهم النبي صلى الله عليه وسلم في أخذه ، وقد كان هذا
بعد اجتهد منهم ، والاجتهاد معذور إذا أخطأ في اجتهداده
وهل يصح أن يغضب الله لما أخذوا به من الرفق بالأسرى في قبول
الفداء منهم ، وهو الذي يوافق ما جاء به الإسلام من الأمر بالإحسان

إلى الأسير ، نخالف بهذا ما كان يتخذ قبله من الشدة في معاملة الأسرى وهل يصح أن يغضب الله لفداء أولئك الأسرى ؟ وفيهم مثل العباس بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب ، وهو يعلم ما سيكون من إسلامهم ، وأنه سيحقق رجاء أبي بكر فيهم — لعل الله أن يتوب عليهم — وكان صناديد قريش قد قتلوا في هذه الغزوة ، ولم يفلت إلا قليل منهم ، وكان أكثر من وقع في الأسر من غير أولئك الصناديد ، ومن يرجى إسلامهم في مستقبل أمرهم

وإنى أرى أنه إذا أبيع قتل الأسير في الإسلام فإنه لا يصح أن يصار إليه إلا عند الضرورة القصوى ، وإنه ليعجبني ما روى عن الحسن وعطاء أنهما قالوا : لا يقتل الأسير ، ولكن يفادى أو يمن عليه . وقد اعتمدا في هذا على قوله تعالى في الآية — ٤ — من سورة محمد (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مننًا بعد وإما فداء) فلم يذكر القتل ، وإنما ذكر الفداء ، فيبقى القتل على حرمة (١)

وإنى أرى أن الآيتين السابقتين نزلتا في أمر آخر حدث أثناء القتال في بدر ، ولم ينزلا في قبول الفداء بعد انتهاء القتال ، وذلك أن تلك الغزوة كان لها شأنها من بين الغزوات ، لأنها حصلت في أوائل الحرب التي قامت بين المسلمين وقريش ، وكان المسلمون في قلة بين العرب ، إذ كان الإسلام لا يكاد يجاوز المدينة . ولهذا أمرهم الله في هذه الغزوة ألا تأخذهم رافة ولا شفقة بأعدائهم إذا أمكنهم ، ليثخنوا فيهم ويقضوا على صناديدهم . كما قال تعالى في الآية — ١٢ — من سورة

(١) المبسوط للسرخسي ج ١٠ ص ٢٤

الأنفال (سألني في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق
الاعناق واضربوا منهم كل بنان) فأمروا في هذا بقتلهم وعدم
الإبقاء عليهم بأسرهم . ولا شيء في هذا أثناء القتال

والكن المسلمين خالفوا هذا في قتالهم ، لأنهم لم يكادوا يرون بوادر
النصر حتى غلبت عليهم جاهليتهم الأولى . إذ كانوا يتخذون القتال
وسيلة إلى الحصول على المال ، فتركوا قتل المشركين ، وأخذوا في
أسرهم طمعاً في فدائهم . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يرقب القتال في
عريشه ، وسعد بن معاذ قائم على بابه يتوشحاً في نفر من الأنصار ،
فراى النبي صلى الله عليه وسلم في وجه سعد الكراهية لما يصنع الناس
حين استبدلوا الأسر بالقتل . فقال له : والله لك يا سعد تكبره
ما يصنع القوم . فقال سعد : أجل والله يا رسول الله ، كانت أول وقعة
أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان في القتل أحب إلى من
استبقاء الرجال

فهذا الإثخان أثناء القتال هو الذي نزل فيه قوله تعالى في الآيتين
السابقتين (ما كان لني أن يكون له أسرى حتى يشخن في الأرض) ولا
شيء في الإثخان في القتل أثناء القتال ، بل هو مما تبيحه الشرائع العادلة ،
ويقتضيه الحزم والتدبير ، وكثيراً ما يكون التهاون فيه سبباً في خسارة
المعركة . فالمراد أنه ما كان لني أن يكون له أسرى بإيثار الأسر على
القتل في القتال ، لا بقتل الأسرى بعد الانتهاء من قتالهم . فإن هذا
لا يقره كثير من الشرائع . ولهذا اختلف فقهاؤنا فيه ، وذهب بعضهم
إلى تحريمه

وأما قوله تعالى في الآيتين السابقتين (تريدون عرض الدنيا)
فلا يراد منه الفداء الذي أباحه لنا بعد القتال ، وأشار به أبو بكر ،

واختاره النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما يراد منه ما حصل منهم أثناء القتال من إيثار الأسر على القتل ، لأنهم أرادوا به عرض الدنيا ، وهو الطمع في فداء الأسرى ، وهذا هو قتالهم في الجاهلية ، والإسلام أشرف من أن يكون القتال فيه لذلك الغرض

وقد يقال : إنه لو صح هذا لعوقبوا عليه بحرمانهم مما طمعوا فيه من الفداء ، والجواب أنهم بعد انتهاء القتال صاروا إلى حالة أخرى لها حكمها ، ويجب أن يقضى فيها بالمصلحة ، ويقطع النظر عما كان منهم أثناء القتال ، وقد قضت المصلحة بإيثار الفداء على القتل بعد حصول الأسر ولا شك أن ما ذهبت إليه في تفسير الآيتين السابقتين هو الظاهر منهما ، لأن العتاب في قوله (ما كان لنبي أن يكون له أسرى) لم يرد إلا على الأسر ، فيكون العتاب على إيثاره على القتل أثناء القتال ، أى على وجود الأسر ، وهذا يخالف المعروف في تفسيرهما ، لأن العتاب فيه على قبول الفداء لا على وجود الأسر ، ولو كان المقصود العتاب على قبول الفداء لكان نظم الآية - ما كان لنبي أن يبقى على أسرى - بأن يقتلهم ولا يقبل الفداء منهم

وإذا كنت بما ذهبت إليه من ذلك أخالف المعروف من تفسير تينك الآيتين ، فإنى لست أول من خالفه ، لأن ابن السبكي قال قبلى في تفسيرهما : ما كان لنبي غيرك أن يكون له أسرى حتى يشخن في الأرض . فجعل هذا من خصائصه صلى الله عليه وسلم ، ولا شك أن تفسيره للآيتين أقرب إلى التفسير المعروف من تفسير ابن السبكي ، وأن تفسيره بعيد عن نظم الآية ، وإنما الأقرب إلى نظمها تفسيرى وحده ؟

استفتاء العلم في أول وحي

كثير من الناس يمر على استفتاء ورقة بن نوفل في أول وحي في الإسلام ولا يرى فيه ما يلفت النظر ، ويحدد موقف الإسلام من العلم لأول ظهوره ، ويبين مبلغ اهتمام الإسلام بتحديد هذا الموقف من أول وحي نزل ، لأن أهل الأديان السابقة كانوا يقفون موقف العداء من العلم ، حتى ذمت بعض رسائلهم المقدسة الحكمة والحكام ، فقالت في ذم الحكمة : لأن حكمة هذا العالم هي جهالة عند الله : وقالت في ذم الحكماء : الرب يعلم أفكار الحكماء أنها باطلة

فهل جاء الإسلام لبنأى عن العلم والحكمة كما نأى أهل أولئك الأديان ؟ فأدى بهم مجافاة العلم والحكمة إلى الوقوع في البدع التي أدت بهم إلى تحريف دياناتهم ، وتشويهها بجهالات الوثنية وأباطيلها ، أوجاء ليسلك مسلك آخر يؤاخي فيه بين العلم والحكمة ، ويقف منهما موقفا يوافق شريعته التي جاءت خاتمة الشرائع ، لتجدمنهما الحارس الأمين ، وتأمين بهما من الوقوع فيما وقعت فيه الشرائع السابقة ، فيسير كل من الدين والعلم والحكمة جنباً لجنب ، ليتضافر كل منهما في هتاءة هذا العالم ، ويتعاون كل منهما في سعاده في دنياه وآخرته

وقد جاء استفتاء ورقة بن نوفل في ذلك إيذاناً باختياره المسلك الثاني مع العلم والحكمة ، وإعلاناً بأنه يمدده إليهما من أول يوم ظهر فيه ، وبهذا يعظم شأن ذلك الاستفتاء ، ويكون له مغزى عظيم الخطر ، وغاية جليلة القدر ، وهأنذا أبين كيف كان ذلك الاستفتاء في أول وحي

نشأ النبي صلى الله عليه وسلم بين قومه في مكة كما نشأ غيره فيها ،
فرعى الغنم صغيراً ، ثم اشتغل بالتجارة التي كان قومه يشتغلون بها ،
ولما بلغ خمساً وعشرين سنة تزوج خديجة بنت خويلد ، وكانت ذات
ثراء في مكة ، فلم تضن عليه بشيء من مالها ، وبهذا وجد فسحة من وقته
بعد تزوجها ، فكان يقصد إلى غار حرام يتعبد فيه الفينة بعد الفينة ، فيقضى
فيه الليالي ذوات العدد ، ثم يعود إلى زوجته بعد أن ينتهي من عبادته ، ولم
يكن هذا شأنه وحده في قومه ، بل كان كثير منهم يشاركه في هذا التمسك
وقد قضى في هذه الحياة التي لا يختلف فيها عن قومه أربعين عاماً ،
لا يفكر في شيء غيرها ، ولا يترقب أن يتغير مجراها إلى ما صارت إليه
بعد هذا السن ، بل كان راضياً بها كل الرضا ، لأنه يجد فيها زوجاً
وفيه مخلصاً ، وقوماً يحبونه ويرضون عنه ، لما اشتهر به من الاستقامة
والأمانة والصدق ، حتى كانوا يلقبونه بينهم الأمين ، ومن يكون هذا
حاله يعيش سعيداً بين قومه ، ويرضى بحظه من هذه العيشة السعيدة
فلما جاءه الوحي لأول مرة في غار حرام صادف منه ما لم يكن
ينتظره ، وكان لمفاجأته له أكبر تأثير في نفسه ، فبينما كان قائماً ذات
يوم على الجبل ، إذ ظهر له شخص غريب لم يشاهد مثله في حياته ،
فقال له : أبشر يا محمد ، أنا جبريل ، وأنت رسول الله إلى هذه الأمة ،
اقرأ . فقال : ما أنا بقارىء . لأنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، فأخذه
جبريل فغطه بالنمط الذي كان ينام عليه ، حتى بلغ منه الجهد ، ثم أرسله
وقال له : اقرأ . فقال : ما أنا بقارىء ، فأخذه فغطه ثانية ثم قال له :
اقرأ . فقال : ما أنا بقارىء . فغطه الثالثة ثم قال له (اقرأ باسم ربك
الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي
علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم)

ثم اختفى جبريل بعد هذه المفاجأة ، فكان لظهوره واختفائه بهذا الشكل الغريب أكبر أثر في نفس النبي صلى الله عليه وسلم ، فقطع عبادته ورجع إلى زوجته خديجة يرجف فؤاده مما ألمَّ به من الفزع ، ولما دخل منزله قال : زُمَّ لوني زملوني ، فزملوه حتى زالت النقشُشَ عريرة عنه ، وذهب عنه ذلك الفزع ، فأخبر خديجة بما حصل له من ذلك الأمر ، وخشى على نفسه أن يكون أصابها شيء ، فيكون ما رآه شيطاناً لا ملكاً ، فطمأنته خديجة على نفسه ، وقالت له : كلا ، والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فلا يسلط الله عليك الشياطين أو الأوهام ، ولا مرأى أن الله اختارك لهداية قومه فاطمأن النبي صلى الله عليه وسلم بهذا بعض الاطمئنان ، واطمأنت زوجته عليه بعد أن زال عنه ما ألمَّ به من الفزع ، ولكنهما أرادا أن يزدادا اطمئناناً بالرجوع إلى علم العلماء بهذه الأحوال ، لأن العلم هو الذي يطمئن النفس ، ويفيد اليقين بما عنده من البرهان ، وهنا يمد الإسلام يده إلى العلم في أول يوم يولد فيه ، ليدل على أنه لا يجد غضاضة في الاستعانة به ، وعلى أنه سيقف منه موقفاً يخالف موقف أهل الديانات قبله .

وكان لخديجة ابن عم عالم يقال له ورقة بن نوفل ، تنصر في الجاهلية وتعلم اللغة العبرية ، فكان يكتب بها من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب ، وقد عرف بهذا بين قومه ، واشتهر بالعلم بينهم ، وكان في ذلك الوقت شيخاً كبيراً زال بصره ، وانقطع للعلم الذي كان يعز وجوده بين قومه ، وكان ذا نفس كريمة تخضع للحق ، وتحب الإنصاف ، وتطلب العلم

للعلم ، لا لتستفيد منه مالا أو جاها يورثه جمودا فيه ، وخوفا من منافسة غيره له في دين أو علم .

فأخذت خديجة زوجها اليه لتستفتيه فيها حصل له ، وتستعين به عليه في زيادة الاطمئنان عليه ، فقالت له : يا ابن عمّ ، إسمع من ابن أخيك .

فقال له ورقة : يا ابن أخى ، ماذا ترى ؟

فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم بأمر ذلك الممّلك .

فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزله الله على موسى ، ثم قال :

يألتنى فيها جدّ عاذاً يخرجك قومك من بلادك التى نشأت بها لمعاداتهم إياك ، وكرهاتهم لك ، حينما تطالبهم بتغيير اعتقادات وجدوا عليها آباءهم .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم له : أو يخرجىّ هم ؟

فقال له ورقة : لم يأت رجل قط بمثل ما جئت إلّا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزّراً .

وإنما استغرب النبي صلى الله عليه وسلم أن يخرجوه قومه ، لأنهم كانوا يحبونه ويرضون عنه كما سبق ، فاستغرب أن يعادوه إذا دعاهم إلى هذا الدين الحق ، وأن ينقلب هذا الحب الذى مكث أربعين سنة إلى عداوة وبغضاء .

وقد رجعت خديجة بزوها إلى منزلها ، بعد أن طمأنها ورقة بن نوفل عليه ، وأخبرها بأن ما رآه مملّك لا شيطان ، لأن الشيطان لا يأتى بمثل ذلك ، وإنما يأتى به ذلك الناموس الذى كان يأتى الأنبياء قبله فمد العلم يده بهذا إلى الدين كما مد اليه يده ، وزاد فى يقينه بما عنده من البرهان حين طلب منه أن يزيد فى يقينه ، ولم يتردد فى الإيمان به

وتأييده إذا صادف من أعدائه إنكاراً ، أو لاقى منهم جحوداً ، وقد أثبت هذا أن العلم الصحيح لا يعادى الدين ، كما أن الدين الصحيح لا يعادى العلم ، لأن الغاية منهما واحدة في هذه الحياة وهى الوصول إلى معرفة الحقيقة ، والعمل على سعادة الناس فى دنياهم وأخراهم ، وإن كان الدين يعتمد فى هذا على طريق الوحي ، والعلم يعتمد فيه على طريق العقل ، لأن المعول عليه هو الاتحاد فى الغاية ، ولا يضر بعد الاتحاد فيها الاختلاف فى الوسيلة ، لأن الغاية لا يلزم أن يكون لها وسيلة واحدة ، بل قد يكون لها وسيلتان أو أكثر .

ولاشك أن الاسلام قد فتح بذلك عهداً جديداً فى التاريخ ، وانتقل به من حال الطفولة التى كان يؤمن فيها بالخرافات والأباطيل ، ولا يعتمد على العلم والعقل ، إلى حال الكمال العقلى الذى تسكس فيه سوق الخرافات والأباطيل ، ويظهر فيه سلطان العلم والعقل ، فتتخلص العقول من قيود الجهل ، وتنطلق من عقالها وراء البحث والنظر ، لتصل إلى ما قدر لها من الكمال ، وتكشف من العلوم ما يسعد الناس به فى دنياهم وأخراهم .

وإذا كان هذا كله هو المغزى من استفتاء ورقة بن نوفل فى أول وحي فى الاسلام ، فما أعظمه مغزى ، وما أشرف الغاية التى يرمى إليها ؟

بين المرونة والتنطع في الدين

في غزوة حنين

يراد من المرونة في الدين أن يكون ديننا مرناً لاجمود فيه ، ويراد من التنطع في الدين التعمق فيه إلى أن يصل إلى حد الجمود ، وقليل من الناس من يعرف الآن أن التعمق في الدين ليس منه في شيء ، لأننا صرنا في زمن انقلابت فيه أوضاع الدين ، حتى صار التعمق فيه هو المثل الأعلى عند المسلمين ، وصار المتعمقون فيه قدوتهم وموضع رجائهم ، يلتمسون منهم البركات ، و يقيمون لهم التقية باب بعد الموت وقد وجد من أولئك المتعمقين في دينهم شخص في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، يقال له ذو النخوة ينصرة التيمى ، وكان له موقف معه في غزوة حنين ، يدل على مقدار ما يصل اليه التعمق في الدين بصاحبه ، حتى يجعله يرى أنه أعلى في الدين من النبي الذي أرسل به . ولا بد من ذكر هذا الموقف بين النبي صلى الله عليه وسلم وذو النخوة في غزوة حنين ، ليكون فيه للناس عظة تنفعهم في دينهم ودنياهم ، ويعرفوا أن الدين ليس أذكارا تقرأ ، وأورادا تتلى ، وقراعد ينظر إلى ألفاظها ومعانيها ، ولا ينظر إلى غاياتها ومقاصدها ، ولا يلتفت إلى وجه الحكمة فيها ، ليراعى ما يحيط بها من الظروف والأحوال ، وتؤخذ ببعض التساهل إذا وجب أخذها به ، وحدثت أحوال توجب عدم التقيد بكل أحكامها وقبورها ، وفي هذا تظهر حاجة المتدين إلى أن يكون عنده شيء من المرونة وحسن السياسة ، حتى لا يقف جامداً أمام الألفاظ والنصوص ، ولا يتصرف فيها

بما يلائم الظروف الطارئة ، ويوافق الأحوال العارضة . ومثل هذا لا يتأتى للمتطوع في الدين ، لأنه يأخذ نفسه بكل القيود ، ولا يتساهل فيها بتأثير الظروف والأحوال ، فالدين عنده ليس إلا قواعد موضوعة ، وألفاظا لها معان لا تحيد عنها .

وضعت قاعدة قسمة الغنائم في غزوة بدر ، وكانت في السنة الثانية من الهجرة ، فاستقر العمل بها فيما بعدها من السنين ، إلى أن كانت غزوة حُنين في السنة الثامنة من الهجرة ، وكانت قد جرت فيها ظروف لم تكن فيما قبلها من الغزوات ، إذ خرج فيها مع المسلمين أهل مكة من قريش ، وكان بعضهم لم يمس على إسلامه إلا أيام معدودة ، وبعضهم لا يزال باقيا على شركه ، فكانوا في حاجة إلى التأليف والترغيب في الإسلام ، وكان قتالهم لا يزال متأثرا بما كان يقصده في الجاهلية ، من الحصول على الأموال والغنائم ، لأن إسلامهم كان لا يزال ضعيفا ، حتى إن بعضهم ارتد عنه حينما هزم المسلمون في أول هذه الغزوة ، فقال قائل منهم : الآن بطل السحر . وقال قائل منهم : الآن ترجع العرب إلى دين آبائنا ، وقال أبو سفيان بن حرب : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر .

فلما انتصر المسلمون بعد هزيمتهم في هذه الغزوة ، وغنموا فيها غنائم لا تحصى ولا تعد ، اشرأبت أعناق قريش إليها ، وامتدت أعينهم نحوها ، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يؤثرهم بشيء من هذه الغنائم ، ليتألف من أسلم منهم ، ويرغب في الإسلام من بقى منهم على شركه ، فبسط يده في العطاء ، وأعطاهم كثيرا مما امتدت إليه أعينهم ، وقد رأى صفوان بن أمية يرمق شعبا مملوما نَعَمًا وشاء ، فقال له : هل يعجبك هذا ؟ قال : نعم . فقال له : هو لك . فقال صفوان :

ما طابت بمثل هذا نفس أحد . وكان لا يزال مشركا فأسلم ، وأعطى
أبا سفيان أربعين أوقية ومائة من الإبل . فقال له : ابني يزيد . فأعطاه
كذلك ، وقال له : ابني معاوية . فأعطاه كذلك ، فأخذ منه ثلثمائة من
الإبل ، ومائة وعشرين أوقية من الفضة ، وقال له : يا بني أنت وأمي
يا رسول الله ، لقد حاربتك فنعم المحارب كنت ، وقد سالمتك فنعم
المسلم كنت ، هذا غايه الكرم ، جزاك الله خيرا . وأعطى العباس
ابن مرداس دون عيينة بن حصن والأقرع بن حابس فغضب
لأنه أعطاه دونهما ، وقال يعاتبه :

كانتْ نهما بآ تلافيتهما بكـرى على المهر في الأجرع
فأصبح نهبي ونهب العـبيـة كـد بين عيينة والأقرع
وما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس في الجمع
وما كنت دون امرئ منهما ومن تَضَع اليوم لا يرفع
فقال النبي صلى الله عليه وسلم . إذهبوا فاقطعوا عنى لسانه . فأعطوه
حتى رضى .

وكان ذو الخويصرة التميمي يشاهد ذلك كله ، فلم تسعه نفسه المتعمقة
في الدين ، ولم يرتح له تنطعه وجموده ، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم
فقال له : يا محمد ، قد رأيت ما صنعت في هذا اليوم ! فقال له : أجل ،
فكيف رأيت ؟ قال : لم أرك عدلت . فغضب النبي صلى الله عليه وسلم ،
وأنكر عليه أن يرميه بالظلم والجور ، ثم قال له . وَيَحْكُك ، إذا لم
يكن العدل عندي فعند من يكون ؟ وكان عمر بن الخطاب حاضرا ،
فقال للنبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، دعنى أقتل هذا المنافق .
فقال له : معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابي ، دَعْنِه ، فإنه
سيكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم

من الرمية ، ينظر في النصل فلا يوجد شيء ، ثم في التقدح فلا يوجد شيء ثم في الفوق فلا يوجد شيء ، سبق الفرث والدم .

فهذا التعمق في الدين قد أوقع ذا الخويرة في ذلك الجهل الفاضح ، وأدى به إلى ذلك الجمود القبيح ، وجعله ينسى مقام النبوة فيتعالى عليها ، ويظن أنه أرسخ في الدين منها ، وينكر على النبي صلى الله عليه وسلم أن يأخذ في قسمة غنائم حنين بشيء من حسن السياسة ، وأن براعى ما جد فيها من ظروف وأحوال ، فلا يتقيد فيها بما جرى عليه في قسمة الغنائم قبلها ، لأنه لم يكن له مثل ظروفها وأحوالها ، والقواعد لا يصح أن تؤخذ مجردة عما يقترن بها من الأحوال ، وما يحيط بها من الظروف .

وكان على ذي الخويرة أن يعرف أن حسن السياسة من الدين ، فإذا اقتضى في بعض الأحوال شيئاً من التساهل في تطبيق القواعد لم يكن فيه حرج ، لأن الدين يسر لا عسر ، ولا يصح أن يؤخذ بذلك التعمق والتزمّت ، لأنه وسط لا تفريط فيه ولا إفراط ، ولا تهاون فيه ولا تشدد .

وقد يظن بعض الناس أن ذا الخويرة كان من المنافقين الذين يضمرون الكفر ويظهرون الإسلام ، ولم يكن من المتشددين الذين يغالون في الدين ، وقد ظن هذا فيه عمر بن الخطاب حين قال للنبي صلى الله عليه وسلم : دعني أقتل هذا المنافق .

والحقيقة أن ذا الخويرة لم يكن من أولئك المنافقين ، وإنما كان كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم طليعة لصنف آخر في الدين ، يخلص في دينه عن جهل ، ويتعمق فيه عن تنطع ، ويظن أن الدين قواعد ورسوم ، فيجمد على الأخذ بها ، ويقف عند ألفاظها ومعانيها ، ولا يبيح لنفسه أن يحيد عنها قيد شعرة ، ولو حدث من الظروف

ما يقتضى الأخذ فيها بشيء من التساهل ، لأنه متشدد في دينه لا يعرف التساهل فيه ، بل يرى هذا التساهل خروجاً منه ، وذلك الصنف من المتشددين في دينهم هم الذين عرفوا فيما بعد هذا باسم الخوارج ، فلم يرضهم إسلام عثمان ولا علي ولا طلحة ولا الزبير ولا غيرهم من المسلمين السابقين ، بل وقفوا منهم موقفاً يشبه موقف ذى الحوبصرة من النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أولئك الصنف من المتشددين في الدين : أهم كفار ؟ فقال : من الكفر فركبوا ، فقبل له : أمنافقون ؟ فقال : إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً ، وهؤلاء يذكرون الله كثيراً ، فقبل له : ما هم ؟ فقال : أصابهم فتنة فركبوا وصحروا^(١) .

وهذه الفتنة هي فتنة الغرور بالتشدد في الدين ، والوقوف عند حدود القواعد والرسوم ، وكل شيء جاوز حده انقلب إلى ضده ، والإسلام وسط بين التهاون والتشدد ، ولهذا جاء ديناً عاماً صالحاً لكل الناس ، وجماعت أحكامه ملائمة لكل زمان ومكان .

فما أحوج المتزمتين الآن بيننا إلى أن ينتفعوا بهذه الموعظة ، فلا تضيق نفوسهم بما تدعو إليه الضرورة من بعض الخروج على المألوف ، ولا يقفون جامدين أمام القواعد والألفاظ ، لأن نطق الحوادث أقوى من نطقها ، فيجب إخضاعها لما جاء في الدين من وسائل إخضاعها ، لئلا يضيق الناس في عصرنا بالدين ، ونندم على ما يترتب على هذا حين لا ينفع الندم ، وقد أعذر من أنذر .

(١) وقيل : إن هذا الكلام لعلي بن أبي طالب ، قاله في أهل التهوران من الخوارج ، وقد نسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم في السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٤٠ - مطبعة محمد علي صبيح

الشورى الإسلامية ونظام الحزبية

كم فى السيرة النبوية من أسرار فى التشريع وغيره لو رجعنا إليها لا كتفينا بها ، ولا غنتنا عن الاستعانة بالتشريع الأجنبى الذى أضلته السياسة ، وسارت به فى طرق ملتوية ، فلو رجعنا مثلاً فى هذه السيرة إلى نظام الشورى فى الحكم لوجدنا فيها نظاماً أصح من نظام الشورى الحديث ، لأن الحكم فى هذا النظام الحديث يقوم على أساس الحزبية ، فتكون الحكومة القائمة ممثلة لحزبها أكثر من تمثيلها للأمة بأسرها ، ولهذا تكون مصلحة حزبها هى الأهم ، لترضى أنصارها فى المجالس النيابية ، وتضمن بقاء حزبها فى الحكم ، ولقد كان هذا سبباً فى طغيان الحزبية فى عصرنا ، وقيام خصومات عنيفة بين أحزاب كل أمة ، وخلافات خطيرة تفرق كلمتها ، وتشغل الناس بأمرها عن المصلحة العامة ، أما الإسلام فلا يعرف فى حكمه هذه الحزبية المتعصبة ، لأن حكومته ترفع مصلحة الناس جميعاً ، ولا تهمها مصلحة الأحزاب كما تهم الحكومات الحديثة .

وقد يختلف فيها أهل الشورى فى أمر من الأمور ، فيبدى كل واحد رأيه فيه من غير أن يتقيد برأى حزب من الأحزاب ، لأنه لم يكن فيها أحزاب تقيد أعضائها برأيها ، ويطنى رأيها على كل فرد فيها ، فتضيع الحرية الفردية ، وتستبد بها الأحزاب القائمة ، والاستبداد ممقوت على كل حال ، سواء أكان استبداد فرد ، أم كان استبداد حزب ، وسأسوق من هذا مثالا من أمثلة اختلاف أهل الشورى فى بدم الإسلام ..

كانت غزوة أحد في السنة الثالثة من الهجرة ، وقد اختلف أهل الشورى فيها أيخرجون من المدينة إلى لقاء عدوهم ، أم يمكنون فيها ولا يخرجون ؟ وكان أصل هذا الخلاف أن رجلا من المسلمين أكثرهم من الأحداث أسفوا على ما فاتهم من غزوة بدر ، لما كانوا يسمعون من إشادة النبي صلى الله عليه وسلم بفضل من شهداها ، فكانوا يتمنون غزوة يتالون فيها من النصر ما ناله أهل بدر ، أو من الشهادة في سبيل الله مثل من نالها فيها ، فرأوا أن يبادروا بقتال المشركين في غزوة أحد ، فيخرجوا اليهم من المدينة ، ولا يبقوا فيها حتى يأتوا إلى قتالهم فنام النبي صلى الله عليه وسلم ليلته فرأى رؤيا فيها ، فلما أصبح قال : والله إني قد رأيت خيرا ، رأيت بقرا تذبح ، ورأيت في ذباب سبني ثلما ، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة ، فأما البقر فناس من أصحابي يقتلون ، وأما الثلم الذي رأيت في سبني فهو رجل من أهل بيتي يقتل ، وإني رأيت أن تقيموا بالمدينة ، تدعوهم ينزلون حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام ، وإن دخلوا علينا قاتلناهم ، ورؤوا من فوق البيوت .

وكانوا قد شبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية ، وجعلوا فيها الآطام والحصون ، فكانت حصنا قويا لأهلها ، وكان الرأي أن يقيموا فيها ، كما فعلوا بعد هذا في غزوة الأحزاب . فلم يمكن المشركين أن يقتحموها على المسلمين ، مع أن جموعهم كانت أكثر من جموعهم في غزوة أحد .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد عود أصحابه الشورى في الرأي ، فإذا رأى رأيا لم يعمل على فرضه عليهم ، بل أباح لهم أن ينظروا فيه

حتى يتفقوا عليه أو يتركوه إلى غيره ، فأتى اليه القوم الذين رأوا أن يخرجوا من المدينة إلى لقاء العدو ، وقالوا له : يا رسول الله ، إنا كنا نتمنى هذا اليوم ، أخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرون أنا جـبـئـنا عنهم وضعفنا .

وكان عبد الله بن أبي ربيعة المناقير بالمدينة يرى عدم الخروج منها ، لأنهم يكرهون القتال والاستشهاد فيه ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له : أقم بالمدينة لا تخرج اليهم ، فوالله ما خرجنا إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه ، فدعهم يا رسول الله ، فإن أقاموا أقاموا بشر مجلس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا .

وكان حمزة بن عبد المطلب وسعد بن عباد والنعمان بن مالك وطائفة من الأنصار يرون الخروج من المدينة ، فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم ليحاولوا ضمه إلى رأيهم ، وقالوا له : إنا نخشى يا رسول الله أن يظن أعداؤنا أننا كرهنا الخروج جبنا عن لقاءهم ، فيكون هذا جريمة منهم علينا . ثم قال حمزة : والذي أنزل عليك الكتاب ، لا أطعم اليوم طعاما حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة .

وقال النعمان . يا رسول الله ، لا تحرمنا الجنة ، فوالذي نفسي بيده لا دخلنا .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : لمه ؟ قال : لأنني أحب الله ورسوله ، ولا أقرُّ يوم الزحف . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : صدقت . وقد استشهد رضى الله عنه في هذه الغزوة .

فلما وصل الخلاف بينهم إلى هذا الحد رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يفصل فيه بإيثار رأى الكثرة ، لأنه هو القاعدة التي يجب أن يرجع إليها عند الاختلاف في الشورى ، فلم ينظر إلى رأيه في هذا الخلاف ، ولم يحاول أن يحمل عليه من يخالفه فيه ، لأنه لو فعل هذا لكان سُنَّة لمن يأتي بعده من الرؤساء ، وضاعت فائدة العمل بالشورى ، فسُنَّها قاعدة يؤخذ بها في حكم الشورى قبل أن يسُنَّها التشريع الدستوري الحديث ، وفاز بفضل السبق إليها فيه ، لأن الرأي يشتهر في مثل هذه الأمور ، فلا يوجد أوفق للفصل فيه من الرجوع إلى تلك القاعدة ، لأنها ترجع إلى مسألة عديدة لا لبس فيها .

وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن الكثرة في جانب الذين يرون الخروج من المدينة ، فاخترار رأيهم على رأى غيرهم ، وخالف في هذا رأيه ، وإن كان في الواقع أرجح من رأى الكثرة ، ولكنه أراد أن يجعلها شريعة لمن يأتي بعده من الرؤساء ، فلا يتشبث رئيس برأيه عند الخلاف في الرأي ، بل يؤثر عليه رأى الكثرة الغالبة ، ليستقيم أمر الحكم ، ويبعد عن أسباب الفتن ، وقد يكمن رأى القلة أرجح من رأى الكثرة كما في غزوة أحد ، ولكن مخالفة رأى الكثرة قد يكون أشد ضررا من مخالفة رأى القلة ، وقد جاء الإسلام بقاعدة ارتكاب أخف الضررين

وهنا نرى أن الخلاف لم يقيم بين أحزاب تتعصب لرأيها ، ويحاول أن يسقط بعضها بعضا للوصول إلى الحكم ، بل قام بين جماعة لا أحزاب بينها ، وإنما هو الخلاف في الرأي هو الذي قسمهم إلى فريقين في تلك المسألة ، فإذا انتهى أمرهم فيها عادوا إلى مثل ما كانوا عليه من

الاتحاد في الرأي ، ولم يتخذوا مظهر الخلاف في الرأي شعارا لهم ، ولم يتشبثوا به كما تشبث الأحزاب في هذا العصر .

ثم كان بعد إيشار رأى السكثرة في الخروج من المدينة أن صلى النبي صلى الله عليه وسلم الجمعة بالناس ، فوعظهم وأمرهم بالاجتهاد في التأهب للقتال ، ووعدهم بأن لهم النصر ما صبروا ، ففرحوا لوعده فرحا عظيما ، ثم صلى بهم العصر ، وكانوا قد حشدوا وحضر أهل العوالى ، وهى القرى التى حول المدينة من جهة نجد ، فدخل حجرته وليس عدته ، وتقلد السيف ، وألقى الترس وراء ظهره .

وقد اصطف الناس ما بين حجرته إلى منبره ينتظرونه حتى يخرج ، فقال لهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير : استكروهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخروج ، وقلمتم له ما قلمتم ، والوحى ينزل عليه من اسماء ، فردوا الأمر اليه .

فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم وجدوه قد لبس لامته وتقلد سيفه ، فندموا على ما صنعوا من حمله على رأيهم ، وقالوا : ما كان لنا أن نخالفك . فاصنع ما شئت ، وفى رواية — فإن شئت فاقعد .

وإنه لإيشار جميل من تلك السكثرة ، وقد حملها عليه سبق النبي صلى الله عليه وسلم إلى إيشار رأيها على رأيه ، فقابله إيشارا بإيشار ، لأن فضيلة الإيشار كانت شعار جماعتهم ، وكانت ديدنهم فى كل أحوالهم ، لأنهم لم تسكن بينهم أحزاب تصر على الخلاف ، وتتعصب للرأى ، وتقضى بهذا على ما كان بينهم من فضيلة الإيشار .

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم رأى أن الأمر قد تغير بعد اتفاقهم على الخروج من المدينة ، وبعد أن لبس لامته وتقلد سيفه ، لأنهم

إذا رجعوا عن هذا لم ير العدو إلا أنهم قد جنوا عن قتالهم ، فتقوى نفسه في القتال ، والقوة المعنوية لها أثرها في النصر ، وهذا إلى أن التردد في الرأي مظهر ضعف ، فيكون له أثر سيء في نفوس المسلمين فلما فوضوا إليه أن يصنع ما شاء قال لهم : ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمة أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه ، وفي رواية – لا ينبغي لنبي إذا أخذ لأمة الحرب ، وأذن في الناس بالخروج إلى العدو ، أن يرجع حتى يقاتل .

ولا شك أن هذا كان غاية الكمال في حكم الشورى ، فلم تتفرق الأمة فيه إلى أحزاب غايتها الوصول إلى الحكم ، بل كانت جماعة واحدة إذا اتفق أفرادها فغايتهم المصلحة العامة ، وإذا اختلفوا فغايتهم هذه المصلحة أيضاً ، فلا يلابسها مصلحة حزبية في الحالين ، وإنما هي المصلحة العامة لا غير .

ولا يفوتني في ختام هذا البحث أن أنبه إلى أني لا أقصد الطعن في نظام الحزبية على الإطلاق ، وإنما أقصد الطعن في نظام الأحزاب الذين يؤثرون مصلحتهم الحزبية على مصلحة الأمة ، أما الأحزاب التي تؤثر مصلحة الأمة فإنها أحزاب نافعة ، ولا يستغنى عنها نظام الشورى في الحكم .

الرسول الفاتح

إذا نظرنا في تواريخ الأنبياء صلوات الله عليهم وجدنا بينهم رسولين قصدا للتشريع والفتح ، فكان لكل منهما شريعة أنزلها الله عليه ، وكان لكل منهما جهاد في إنشاء دولة تقوم بحراسة شريعته ، وهذان الرسولان هما موسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم .
فأما موسى فقد ظهر والوثنية في عنفوانها ، ولها ممالك قوية تملأ الأرض من أقصاها إلى أقصاها ، فاختره الله تعالى لينشئ دولة صغيرة تدين بالتوحيد ، ليشع نوره بين ظلام الوثنية الحالكة ، ويظهر عدله بين طغيانها وجبروتها ، ويرفع شيئاً من قدر الإنسانية التي نزلت بها عبادة الأصنام ، فجعلتها وقد كرمها الله بالعقل تخضع لحجر لا يعقل ، وتدين بالعبادة لصنم لا ينفع ولا يضر ، وهذا تمكن ملوك الوثنية من استعباد أهلها ، حتى رفعوا أنفسهم بينهم إلى رتبة آلهة ، وحكموهم حكم من لا يسأل عما يفعل ، فطغوا فيهم أشد طغيان ، وساروا فيهم بالجبروت والعسف .

وقد نشأ موسى في مصر بين بني إسرائيل الذين هاجروا إليها من فلسطين فاستعبدتهم أهلها الوثنيون ، وطغافهم فرعون أشد طغيان ، فأرسل الله تعالى موسى إليه لينقذ منه بني إسرائيل ، ويسير بهم إلى فلسطين ، فينشئ لهم دولة بها ، وقد تمكن موسى من إنقاذهم منه ، ولم يتمكن من إنشاء دولة لهم بفلسطين ، لأن قومه لم يساعده على فتحها ، فضرب الله التيه عليهم في سيناء أربعين سنة ، ولم يتمكنوا من

فتح فلسطين إلا بعد موت موسى عليه السلام ، فأقاموا لهم دولة بها حافظت على دين التوحيد أجيالا قليلة ، ثم أخذت تنحرف عنه شيئا فشيئا ، فسلط الله عليها أعداءها حتى قضوا عليها ، وشتوا بني إسرائيل في سائر بقاع الأرض .

وقد ظهر محمد بعد موسى بنحو ألفي سنة ، توالى فيها كثير من الأنبياء بين بني إسرائيل ، وكانت وظائفهم تقرير شريعة التوراة التي أنزلت على موسى ، وتقوية عقيدة الإيمان في نفوس قومهم ، حتى لا تطفئ عليهم الوثنية المحيطة بهم من كل جانب ، فلم يغيروا شيئا في هذه الشريعة ، ولم يحيدوا عنها قيد شعرة ، اللهم إلا ما كان من عيسى عليه السلام ، وكان آخر نبي ظهر بينهم ، وقد ظهر بعد موسى بنحو ألف وخمسمائة سنة ، فغير قليلا في شريعة التوراة ، وأبقى على أصولها وكثير من فروعها ، ولكنه لم يبعث لينشئ دولة كما بعث موسى ومحمد . بل كان بنو إسرائيل خاضعين في عهده لحكم الروم الوثنيين ، فلم يحاول أن يخلصهم من حكمهم ، بل أمرهم بالخضوع لهذا الحكم ، وقال كلمته المشهورة في جواب من سأله في هذا الشأن - أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله - وقد دانت دولة الروم بشريعته بعد مضي زمن طويل عليها ، فلم تدن بها وهي غضة طرية كما أنزلت عليه ، بل دانت بها بعد أن فقدت جدتها ، وصارت تقاليد لا تمثل ما كانت عليه في عهدها الأول ، فلم تغير شيئا يذكر من تقاليد تلك الدولة ، ولم تمح إلا قليلا من مظاهرها الأولى .

فكان التوحيد في حاجة إلى دولة قوية تكون خالصة له ، ولا تقف عند الحدود الضيقة التي وقفت عندها دولة بني إسرائيل ، بل تتجاوز

تلك الحدود والمعالم ، وترفع راية التوحيد في سائر أنحاء الأرض ، لتبلغ دعوته إلى أهلها جميعاً ، ولا تقتصر على دعوة بني إسرائيل كما اقتضت دعوة موسى ، وبهذا تصل بدعوة التوحيد إلى غايتها ، فيكون الرسول الذي بعث لإنشائها خاتم الرسل ، وتكون الشريعة التي أرسل بها خاتمة الشرائع ، وكان محمد صلى الله عليه وسلم هو الذي اختير لهذه الغاية ، وقد اختير من بين العرب ، ولم يختَر من بين بني إسرائيل كما اختير موسى .

لقد كان بنو إسرائيل أمة قليلة العدد ، وقد قضوا في مصر عهداً طويلاً ضربت عليهم فيه الذلة والمسكنة ، حتى ضعفت نفوسهم ، ووهنت قلوبهم ، فكان اختيار موسى لإنشاء تلك الدولة الصغيرة في فلسطين مناسباً لحال قومه ، ولما كانوا عليه من ضعف النفوس والقلوب ، والإحجام عن الجهاد بالنفس والمال ، وقد أرسل الله موسى وأخاه هارون لينقذاهم من حكم فرعون ، فقاما وحدهما بأعباء رسالتهما ، ولم يشاركهما في هذا أحد من قومهما ، لأنهم كانوا ضعفاء تملأ نفوسهم مهابة فرعون ، وتروعهم عظمة ملكه ، وقوة سلطانه ، فوقف له موسى هو وأخوه بقوة الإيمان . وهي من قوة الله التي لا تغلب ، ولا تقوى عليها جبابرة الأرض ، وكان سلاح موسى ما أيده الله به من معجزات روعت قلب فرعون ، وهزت أركان مملكته ، وكان يريد بها أن يجذب قلبه إلى التوحيد ، فأبى عليه وعصى ، لأنه كان جباراً عنيداً ، فلم يدع لتلك العقيدة التي تحد من سلطانه ، وتضعه في مرتبة رعيته ، وأبى أن يمكن موسى من الهجرة بقومه إلى فلسطين ، فهرب موسى بقومه ليلاً من مصر ، وقد تبعه فرعون بجنوده حتى أدركه وهو

يريد اجتياز البحر ، وهنا لك كانت معجزة موسى الكبرى ، فضرب البحر بعصاه فانفلق له ولقومه ، فساروا فيه والماء يحيط بهم من الجانبين ، وسار فرعون وراهم فأطبق الماء عليه ، وأهلكه الله هو وجنوده .

فانتصر موسى وقومه بهذا على فرعون بقوة الله لا بقوتهم ، وكان نصراً هيناً لم يحملوا فيه سيفاً ، ولم يلقوا فيه أذى ، ولم يكن نتيجة حرب تربي فيهم رجالاً ، وتظهر فيهم أبطالا ، وكان لهذا أثره فيهم حين جدَّ الجدُّ ، وجاء وقت إنشاء مملكتهم بفلسطين ، فلما دعاهم موسى إلى حرب أهلها أجابوه بما ذكره الله تعالى في الآية - ٢٢ - من سورة المائدة (قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبّارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داحلون) فأرادوا أن يدخلوها بمعجزة من المعجزات التي ألفوا الانتصار بها ، وخافوا أن يدخلوها بحرب لم يألّفوها ، فضرب الله التيه عليهم في فلسطين أربعين سنة ، ولم يدخلوها فلسطين إلا بعد أن مات ذلك الجيل الذي أضعفه استبداد فرعون ، وكان موسى قد مات قبل ذلك الفتح ، فكان رسولاً مشرعاً ، ولم يكن رسولاً فاتحاً .

أما الرسول الفاتح فهو محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد اختاره الله من شعب قوى كثير العدد ، اتخذ الحرب صناعة ، واشتهر بين الشعوب بالشجاعة ، وتربى على الحشونة بين رمال الصحراء ، فلم يضعفه الترف كما أضعف غيره من الشعوب ، ولم تفسده الشهوات والملذات ، فكان أصلح الشعوب للهوض بدولة التوحيد المنتظرة ، وأقواها على القيام بأعبائها ، وعلى نشر سلطانها بين الناس ، ليظهر التوحيد فيها خالصاً من

شوائب الوثنية ، و يقيم الله بها حجته على الناس كلهم ، فلا يكون هناك حاجة إلى رسالة بعد رسالتها ، بل يختم بها عهد الرسالة ، وتبقى شريعتهما مابقيت الدنيا .

وقد ظهرت هذه الصفات القوية فيمن تبع هذا الرسول الفاتح من العرب ، فلم يحجموا عن الجهاد معه كما أحجم بنو إسرائيل ، بل شاركوه في الجهاد من أول يوم بعث فيه ، وتحملوا من الأذى في سبيله ما تحمله الجبال ، فلم يؤثر ذلك في نفوسهم ، ولم يصرفهم عن إيمانهم ، وقد كان أحدهم يؤتى به في وقت الظهيرة في الرمضاء - وهي الرمل الشديدة الحرارة لو وضعت عليها قطعة لحم لنضجت - ثم يؤتى بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقال له : لا تزال هكذا حتى نموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى . فيقول : أحد أحد ، أى الله أحد . وكان خباب بن الارت له مولاة تعذبه بالنار ، فتأني بالحديد المحلاة فتجعلها على ظهره ليكفر ، فيتحمل هذا ولا يطاوعها إلى الكفر ، وقد اشتد العذاب يوماً عليه ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برده في ظل الكعبة ، فقال له : يا رسول الله ، ألا تدعو الله لنا . فقعده عليه السلام محمراً وجهه ، ثم قال : إنه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد مادون عظمه من لحم وعصب ، ويوضع المنشار على فرق رأس أحدهم فيشق ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليظهرن الله تعالى هذا الأمر ، حتى يسير الراكب من صنعاه إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه .

فرباهم النبي صلى الله عليه وسلم بهذا وأمثاله على الصبر على المكاره ، وغرس في نفوسهم الأمل في حياة سعيدة جديدة ، يشمل الأمن فيها

بلاد العرب ، وتزول فيها الخصومات من بينهم ، ويقوم بينهم
التناصر والتعاون على الخير ، فيظهر دينهم الجديد بظهورهم ، ويسطع
نور التوحيد في العالم بما لم يحصل مثله قبلهم .

فأظهر منهم أبطالا يحبون الموت على الحياة ، ولا يرهبون الحرب
ولو اجتمع عليهم فيها شعوب الأرض كلها ، وقد خرجت قريش
إليهم في غزوة بدر ، وهي في جمع كثير يبلغ أضعافهم ، والعرب كلها
يد واحدة معها عليهم ، فجمعهم النبي صلى الله عليه وسلم يستشيرهم في
حربها ، فقام المقداد بن الأسود فقال له : يا رسول الله ، امض لما
أمرك الله ، فوالله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اذهب
أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك
فقاتلا ، إنا معكما مقاتلون ، والله لو سرت بنا إلى برك الغداج لجالدنا
معك من دونه حتى تبلغه .

أما أنه ليس بعد هذه القوة قوة ، وليس بعد هذه الشجاعة
شجاعة ، وليس بعد هذا الإيمان إيمان ، وليس بعد هذا العزم عزم ،
يطلب النبي صلى الله عليه وسلم أن يحاربوا جيش قريش وحده ،
فيجيبونه إلى قتال العرب كلها ، ويخبرونه بأنه لو طلب منهم أن
يسيروا إلى برك الغداج لساووا إليها . وحاربوا من دونها حتى يبلغوها ،
وهي موضع على ثلاثين أو أربعين ميلا في الجنوب الغربي من المدينة ،
وقيل إنها أقصى معمور الأرض ، وهذا تكون إجابتهم إلى قتال
الناس كلها ، لا إلى قتال العرب وحدهم ، فبارك الله في تلك القلوب
الفتية ، وتلك العزائم الصادقة ، وذلك الإيمان الذي يهدد الجبال ،
ولا يستطيع أحد أن يمنعه عن الوصول إلى غايته .

وقد توجه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الفتح بعد أن أُلجأه قومه من الخروج من مكة إلى المدينة ، فقاتلهم كما قاتلوه وأخرجوه من بلده ، وقاتل العرب معهم حين انضموا إليهم ، وصار يقود أصحابه من نصر إلى نصر ، حتى تم له فتح مكة عاصمة العرب الدينية ، وتم له بعدها فتح جزيرة العرب كلها ، فاستقرت به دولة التوحيد في بلاد العرب ، ودان له أهلها جميعاً ، فنال بهذا من الفتح ما لم ينله رسول قبله ، وأنشأ للتوحيد دولة لم يسبق له دولة مثلهما ، وبهذا كان هو الرسول الفاتح دون الرسل جميعاً ، لأنه تهاى له من الفتح ما لم يتهاى لهم ، وظهر له من الدولة ما لم يظهر لرسول قبله .

ثم أتى خلفاؤه من بعده فساروا فيما بدأ به من الفتح ، واشتبكوا في حروب كثيرة مع دولتي الفرس والروم ، حتى تم لهم إسقاط دولة الفرس ، واستولوا على كثير من بلاد الروم ، ووصلت دولة التوحيد بهم إلى أعلى ذروة في القوة ، حتى صارت أقوى دولة في الأرض . فوصلت الرسالة السماوية إلى غايتها ، وتم لها ما أرادت من إعلان دعوة التوحيد بهذه القوة ، فختمت بالرسالة المحمدية رسالتها ، ولم يبق بعدها إلا الجهاد المتواصل في تأييد دعوة التوحيد ، والدفاع بالنفس والمال عن ذلك الدين الخالد .

وقد يظن بعض الناس أن محمداً صلى الله عليه وسلم جاء للفتح والحرب ، وأن شأنه في هذا شأن الملوك الفاتحين ، وهو ظن خاطيء كل الخطأ ، لأن أولئك الفاتحين كانوا لا يعرفون الفتح إلا بطريق الحرب ، أما محمد صلى الله عليه وسلم فكان لا يسمى هذا فتحاً ، وكان لا يقيم لمثله وزناً ، لأنه يقتصر على فتح البلاد ولا يصل إلى فتح القلوب ، وتكون غايته كسب المجد بالانتصار على الأعداء ، لا كسب محبتهم ومودتهم .

ولهذا عد الإسلام صلح الحديبية أعظم فتح ناله النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد نوّه القرآن به أعظم تنويه في أول سورة الفتح ، فقال (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً ، وينصرك الله نصراً عزيزاً) فهذا الذي سمّاه فتحاً كان سلباً لا حرباً ، وصلاحاً لا قتالاً ، وهدنة كان فيها بعض من الغنى للشركيين . وبعض من الغرم على المسلمين ، ولكنّها عدت مع هذا فتحاً مبيناً ، ونصراً عظيماً ، وقد تضمنت هذه الشروط الأربعة :

- ١ - وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنوات .
- ٢ - من جاء المسلمين من قريش يردونه ، ومن جاء قريشاً من المسلمين لا يلزمون برده .
- ٣ - أن يرجع النبي صلى الله عليه وسلم من غير عمرة هذا العام ، ثم يأتي في العام المقبل ، فيدخلها بأصحابه بعد أن تخرج منها قريش ، فيقيم بها ثلاثة أيام ، ليس مع أصحابه من السلاح إلا السيف في القرباب والقوس .
- ٤ - من أراد أن يدخل عهد محمد من غير قريش دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل عهد قريش دخل فيه .

فقبل النبي صلى الله عليه وسلم هذه الشروط على ما فيها من الغرم عليه وعلى أصحابه ، ودخل أصحابه منها أمر عظيم ، حتى قالوا : سبحان الله كيف نرد إليهم من جاءنا مسلماً ، ولا يردون من جاءهم مرتداً ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لهم : إن من ذهب منا إليهم فلا رده الله ، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً . وكان الشرط الثالث أشد تأثيراً على قلوب أصحابه ، لأنه أخبرهم أنه رأى في منامه أنهم دخلوا البيت آمنين ، وقد سأل عمر أبا بكر في ذلك فقال له : وهل ذكر أنه في هذا العام ؟

فكيف يسمى الاسلام هذا الصلح فتحاً ؟ والفتح إنما هو الاستيلاء على البلاد بالحرب أو نحوها ، وهذا الصلح لم تفتح به بلد من البلاد ، بل كان مشتملاً على تلك الشروط القاسية . فلا شيء إلا أن الاسلام كان يهيمه فتح القلوب أكثر من فتح البلاد ، وقد كان هذا الصلح سبباً في فتح قلوب كثير من المشركين ، لأن الحرب التي كانت قائمة بين المسلمين وقريش جعلت الأمر مغالبة بين الفريقين على النصر ، فغلب فيه التعصب على القلوب ، حتى أعماها عن أمر ذلك الدين ، وجعل أمر النصر هو الغاية العظمى من هذا القتال ، فصاروا لا يفكرون إلا فيه ، ولا ينظرون في ذلك الدين الذى نشأ القتال من أجله ، لأن العرب أهل حرب وعناد ، فإذا مضوا في الحرب ركبوا رؤوسهم ، وصار النصر أهم غاية لديهم .

فلما قام هذا الصلح هدأت به النفوس . وأمكنها أن تعيد التفكير في ذلك الدين الذى قام في سبيله هذا القتال ، فاهتدى إلى الاسلام كثير من عظام قریش ، ولانث قلوبهم إليه بعد تلك القسوة البالغة ، فما هى إلا أن فتحت مكة عليهم حتى دانوا به في يوم وليلة ، وهذا إلى أن النبى صلى الله عليه وسلم أمكنه بهذا الصلح أن يقوم بدعوة سلمية عامة ، فكانت ملوك عصره ودعاهم إلى الاسلام ، وتمكن بهذا من نشر دعوته العامة بين غير العرب من الشعوب ، فدخل الناس في دين الله أفواجا ، وتم هذا بفضل ذلك الصلح المبارك .

فلهذا ذلك الفتح الذى كانت غايته فتح القلوب ، ولم تكن غايته ملك البلاد ، ولا قهر العباد .

دراسة تحليلية

في أطوار حياة النبي صلى الله عليه وسلم

لقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الدراسة التحليلية في قوله تعالى في الآيتين ١٥٠ ، ١٦٠ ، من سورة يونس (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائتت بقراء غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إليّ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ، قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون) .

وفي هذه الإشارة دليل من علم النفس وعلم التاريخ على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن الله تعالى لم يقتصر على معجزة القرآن في الدلالة على نبوته ، بل أضاف إليها أدلة كثيرة من المعجزات وغيرها ، وكان أحياناً يقيم عليها بعض الأدلة العقلية ، كالدليل الذي أقامه عليها في هاتين الآيتين ، فهو دليل عقلي على تأني دلالاته من ناحية علم النفس وعلم التاريخ ، فقد أمرهم فيهما بدراسة تاريخه قبل نبوته وبعدها ، وبدراسة نفسه في هذين الحالين ، ليستنتجوا منهما ما يدلهم على نبوته ، والدراسة الأولى ترجع إلى علم التاريخ ، والدراسة الثانية ترجع إلى علم النفس ، وكلاهما يتعلق بدراسة أطوار حياة النبي صلى الله عليه وسلم . ولقد مرت حياة النبي صلى الله عليه وسلم في أربعة أطوار :

أولها من ميلاده إلى أن بلغ اثنتي عشرة سنة ، وقد بدأ في هذا

الطور يتيماً فقيراً ، مات أبوه عبد الله قبل جده عبد المطلب وهو شاب لا يجاوز العشرين سنة ، فلم يرث من مال أبيه شيئاً ، ولم يتمكن من أن يجمع لابنه مالا ، وقد مات بعد شهرين من حملته ، ثم لم تلبث أمه أن ماتت أيضاً ، فكفله جده عبد المطلب ، ولم يلبث أن مات أيضاً ، فكفله عمه أبو طالب .

وكانت قريش تعيش في مكة عيشة متحضرة تعتمد على العمل والكسب ، ولا تعتمد على ما يعتمد عليه أهل البادية من الغزو والنهب ، فنشأ محمد صلى الله عليه وسلم على عادة قومه محباً للعمل ، راغباً في الكسب الحلال ، وهي عادة أخذ نفسه بها في كل أطوار حياته ، حتى كان يقول بعد أن كرمه الله بالبعث : أطيب الحلال أن يأكل الرجل من عمل يده ، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده .

وقد ابتدأ عمله في هذا الطور من حياته برعى الغنم ، فكان يرعى الغنم لبعض قومه على قراريط يأخذها منهم ، كما رواه البخاري في صحيحه ، وهي حرفة من أشرف الحرف لغلाम نشأ في مثل بلده ، وكان الله يريد له أن ينشأ أمياً لا يجلس إلى معلم ، ولا يقرأ في كتاب ، لتكون معجزته في أميته ، ودلالة نبوته في هذه النشأة التي ابتدأها برعى الغنم .

وكان في هذا الطور يميل إلى شيء من اللهو البريء ، فإذا أرادت نفسه أن تجاوز حد هذا اللهو أدركته عناية الله تعالى ، فخرسته من الوقوع فيما يشينه ، وقد ذكر أمره في ذلك بعد أن كرمه الله بالبعث فقال : لما نشأت بغضت إلى الأوثان ، وبغض إلى الشعر ، ولم أهـم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين ، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت بسوء بعدهما ، حتى أكرمني الله برسالته ،

قلت ليلة لغلام كان يرعى معي : لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة
فأسمر كما يسمر الشباب ، فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة
أسمع عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم ، فجلست لذلك فضرب
الله على أذني فنمت ، فما أيقظني إلا مسُّ الشمس ، ولم أقض شيئاً ،
ثم عراني مرة أخرى مثل ذلك .

وثانيها يمتد من اثنتي عشرة سنة إلى أن بلغ خمساً وعشرين سنة ،
وقد ترك في هذا الطور رعي الغنم ، وأخذ يشتغل بعمل أكبر منه
وهو التجارة ، فعمل فيها مع عمه أبي طالب ، وكان يسافر معه إلى
الشام في تجارته ، حتى حذق التجارة واشتهر بالصدق فيها ، فافرد
عن عمه بتجارة خاصة به ، وأخذ يعمل فيها وحده ، وقد وصلت
شهرة فيها إلى خديجة بنت خويلد ، وكانت سيدة تاجرة ذات شرف
ومال ، تستأجر الرجال للتجارة في مالها ، وتضاربهم إياه ، فلما بلغتها
شهرة رغبته في أن تستأجره كما تستأجر غيره من الرجال ، فكلمته
في أن يخرج في تجارة لها إلى الشام ، على أن تعطيه أفضل مما كانت
تعطى غيره ، فسافر إلى الشام مع غلامها ميسرة ، فباعا وابتاعا وربحا
ربحاً عظيماً ، فلما رجع سرت بما كان منه ، وكان زوجها قد توفي ولم
تتزوج بعده ، فأرسلت إليه تخطيه لنفسها ، وهي تبلغ في ذلك الوقت
أربعين سنة ، وكان سنُّه لا يتجاوز خمسا وعشرين سنة ، فأجابها إلى
ما طلبت ، وأخذ أعمامه إلى عمها عمرو بن أسد ، فخطبها له منه عمه
أبو طالب ، فزوجها عمها له ، وانتقلت حياته بهذا إلى طور آخر غير
هذين الطورين السابقين .

وثالثها يمتد من خمس وعشرين سنة إلى أربعين سنة ، وقد صار
له في هذا الطور زوج غنية كريمة ، سلبت له في مالها ، فكان يعمل فيه

لها ، و يأكل من نتيجة عمله فيه ، وقد كان في نفسه ميل إلى عبادة ربه ،
وإلى العزلة عن ذلك المجتمع الموبوء برذائل الجاهلية ، فلما رزق بهذه
الزوج الكريمة وجد من وقته ما يساعده على إجابة رغبته في تلك
العبادة ، فكان يقصد كل سنة في شهر رمضان إلى غار حراء ، فينقطع
فيه للعبادة . وكانت قريش تفعل ذلك في جاهليتها ، ففعل النبي صلى الله
عليه وسلم من ذلك ما كان يفعله بعض قومه ، ولم يبتدع به شيئا لم
يفعله غيره .

وهذا الطور كان آخر أطواره قبل النبوة ، فإذا أردنا أن نستخلص
منها شيئا من أحواله وخصائصه فيها ، وجدناه رجل عمل يعتمد في
حياته على نفسه ، ويأخذ فيها بما عرف به قومه من الخدق في التجارة ،
والرحلة فيها إلى الأقطار المجاورة لهم ، وكانت هذه التجارة شغلهم
الشاغل ، وعملهم الذي لا يهتمون بغيره مما يهتم به العرب ، من الحرب
والغزو والنهب ، حتى عيرهم به بعض شعرائهم فقال :

ألهى قصياً عن المجد الأساطير ورشوةً مثل ما ترشى السفاسير
وأكلها اللحم بحثاً لا خليط له وقولها رحلت عيرٌ أتت عيرُ
وما كان عليها من عار في هذا العمل الشريف ، وإنما هو عنجهية
الشعر والشعراء في ذلك الزمن الجاهلي .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الحياة التجارية من أحسن
قومه خلقا ، وأعظمهم أمانة ، وأصدقهم حديثا ، وأبعدهم عن الفحش
والأخلاق التي تدنس الرجال ، حتى كان من أفضلهم مروءة ، وأكرمهم
مخالطة ، وخيرهم جوارا ، وأعظمهم حلما .

فأحبه قومه لهذه الأخلاق الكريمة ، وركنوا إليه في كثير من
أمورهم ، حتى كانوا يلقبونه بالأمين ، واشتهر بهذا اللقب بينهم ، وقد

اختلفوا عند بناء الكعبة في الحجر الأسود أيهم يرجعه إلى موضعه منها ، ثم اتفقوا على أن يحكموا بينهم أول داخل إليهم ، فكان صلى الله عليه وسلم أول من دخل إليهم فيها ، وكان سنة في ذلك الوقت خمسا وثلاثين سنة ، فاتفقوا كلهم على تحكيمه في أمرهم . وقالوا : هذا الأمين رضينا ، هذا محمد . فبسط رداءه ووضع الحجر عليه ، وقال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب . وأمرهم برفعه حتى انتهوا إلى موضعه ، فأخذه منهم ووضعوه فيه .

ولقد أمكنه هذه الأخلاق الراضية أن يكسب حب قومه في هذه الأطوار الثلاثة ، مع أنه كان يعلم فساد ما كانوا عليه من عبادة الأصنام ، وكان هذا مما يدعو إلى نفرتهم منهم ونفرتهم منه ، ولكنه لم يشأ أن يفسد بهذا ما بينه وبينهم ، وذهب مذهب من يهتم بإصلاح نفسه ولا يهتم بإصلاح غيره ، ومن الناس من يذهب هذا المذهب إذا يش من إصلاح الناس ، وانقطع أمله في خيرهم ، وكأني به صلى الله عليه وسلم قد ضنَّ بذلك الحب الذي كان يحده من قومه أن يفسده بتخطئتهم في عبادة الأصنام ، وفيما كانوا يأتونه من رذائل الجاهلية ، فعاش بينهم لايهمه إلا أن يحفظ نفسه مما وقعوا فيه ، ثم يتركهم بعد هذا وشأنهم ، لأنه لا شيء عليه من أعمالهم .

وإذا كان قد اعتزل ما كان من شرهم في الجاهلية ، فإنه كان يشاركهم في بعض أعمالهم الصالحة ، ومن ذلك مشاركته لهم في حلف الفضول ، وقد عقد هذا الحلف في دار عبد الله بن جُذْءَانَ التَّيْمِي ، وكان المتحالفون فيه من بني هاشم وبني الْمُطَّلِب ابني عبد مَنَاف ، ومن بني أسد بن عبد العزى ، ومن بني زُهرة بن كلاب ، ومن بني تَيْم بن مُرَّة ، تحالفوا وتعاهدوا ألا يجذوا بمكة مظلوماً من أهلها أو

غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه ، حتى ترد إليه مظلمته . فحضر
النبي صلى الله عليه هذا الحلف مع أعمامه بدار عبد الله بن جدعان ،
وكان يفتخر به بعد أن كرمه الله بالبعث ، ويقول . لقد شهدت مع
عمومتي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ، ما أحب أن لي به حرّاً
النعم ، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت .

وكان صلى الله عليه وسلم لا يعنى في هذه الأطوار قبل النبوة بشيء
من الفصاحة والبلاغة ، فلم يحاول أن يكون بين قومه خطيباً أو شاعراً ،
بل كان يكره الشعر والشعراء ، مع أن جزيرة العرب كانت تعج في
ذلك الوقت بالشعراء والخطباء ، وكانت كل قبيلة تعتز بشعرائها
وخطبائها ، ولكن قريشاً كانت لا تعنى بشيء من ذلك ، وإنما كانت
تعنى بالعمل والتجارة ، حتى كان حظها من الشعر في الجاهلية أقل من
حظ غيرها من القبائل ، مع أن لغتها كانت أفصح اللغات العربية ،
ومع أنها كانت أوفر علماً ، وأدق ذوقاً ، ومع أن مواسم الأدب
وأسواقها كانت لا تقوم إلا بينها ، ولا تظهر إلا في ربوعها .

وهكذا قضى النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الأطوار أربعين
سنة ، قضاها في حياة هادئة ، وعيشة راضية ، لا تحدثه نفسه بشيء مما
حصل منه بعدها ، ولا تدل حياته فيها على شيء مما سيحصل له .

ورابعها يمتد من أربعين سنة إلى وفاته في سن^ة ثلاث وستين سنة ،
وفيه تتغير حياته فجأة تغيراً كبيراً ، ويصير إلى حالة لم تكن حاله
الأولى بحيث تؤدي إليها ، فقد كان في حاله الأولى لا يعنيه حال قومه
في عبادة الأصنام وما إليها ، ولا يتعرض لتخطئتهم في عبادتها حرصاً
على مودتهم ومنزلته بينهم ، فصار في الحالة الثانية لاهمه في حياته
إلا أن يقضى على عبادة الأصنام بين قومه ، ولو أدى هذا إلى أن

تنقلب مودتهم له إلى بغض ، وتمظيمهم له إلى تحقير واستهزاء ، وقد حصل هذا فعلا ، فبعد أن كانوا يلقبونه الأمين صاروا يرمونه بأنه ساحر أو كاهن أو مجنون ، وبعد أن كان يعيش بينهم أهدأ عيشة صارت عيشته إلى أشد كفاح بينه وبينهم .

وقد عاش في حالة الأولى أميًّا لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يعرف إلا التجارة ورعى الغنم ، ولم يحاول أن يكون خطيبا أو واعظا ، فصار في الحالة الثانية ويده كتاب يتحدى به العرب كلهم ، وقد انقلب إلى خطيب يهرقومه بفصاحته وبلاغته ، وإلى معلم لا يدانيه عالم في علمه ، وإلى مشرع يشرع من العقائد والأحكام ما لم يأت به مشرع قبله .

وكل شيء إلا هذا الكتاب الذي يتحدى به العرب جميعا ، فهو كتاب لم يقدر العرب أن يأتوا بمثله في فصاحته وبلاغته وغيرهما مما امتاز به ، وقد سلم من العيوب التي لا تسلم منها كتب البشر ، بحيث لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

فما هذا الانقلاب الفجائي الذي لا يعرف مثله علم التاريخ؟ ولا يعهد مثله في علم النفس ، لأن العلم لا يعرف إلا سُنَّة النشوء والارتقاء ، والتدرج من حالة إلى حالة ، ولا يعرف مثل هذا الانقلاب الفجائي ، ولا مثل هذه الطفرة .

فلا بد أن يكون هذا الانقلاب راجعا إلى أمر خارج عن نفسه ، ناشئا عن شيء لا شأن له فيه ، لأنه لو خُلي ونفسه لمضى في حياته الأولى ، لأنه كان راضيا بها كل الرضا ، ولم يَبْدُ منه ما يشعر بسخط عليها . فإذا ادَّعى أن ذلك الانقلاب لا شأن له فيه ، وإنما هو من الله تعالى ، لم يقف دون دعواه أي عائق من العلم ، بل كان العلم مؤيدا

لدعواه ، حاكما بأن مثل ذلك الانقلاب لا يمكن في سنته أن يرجع الى ذات نفسه ، وإنما هو راجع الى أمر خارج عنها .

وقد وقع هذا الحكم من العلم في ذلك الانقلاب على يد عالم كان معاصراً لة ، وهو ورقة بن نوفل ، وكان امراً قد تنصر في الجاهلية وعرف اللغة العبرية قراءة وكتابة ، فكان يكتب من الإنجيل بها ماشاء الله أن يكتب ، فلما ظهر جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم بأول وحى أدركه روع شديد ، وخاف أن يكون مارآه من الشياطين ، وكان قد ظهر له وهو يتعبد بغار حراء ، فرجع إلى زوجته خديجة وقص عليها مارأى ، فطمأنته وخففت من روعه .

ولكنها أرادت أن تستفتي ورقة بن نوفل في ذلك الانقلاب الفجائي الذي طرأ على زوجها ، وكان ورقة ابن عمها ، فذهبا إليه يستفتيان عليه ، لأن حكم العلم هو الذي يرتاح إليه القلب ، ويبعث الطمأنينة في النفس ، فلما قصا عليه ذلك الأمر ، قال : هذا الناموس الذي نزل الله على موسى .

ولاشك أنه رجع في هذا إلى ما كان يعرفه من أمر النبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته ، لأنه كان معروفاً بالصدق والأمانة ، فلا يمكن أن يكون في أمره شيء من الحيلة والتصنع ، كما رجع إلى ما نزل عليه من ذلك الوحي ، لأن مثله لا يكون من الشياطين ، وإنما يكون من ذلك الملك الذي كان ينزل على الأنبياء ، وهو في هذا الحكم يعتمد على العلم ، ويتخذ منه دليلاً على صدق النبي صلى الله عليه وسلم .

الحرب الخاطفة في الحروب النبوية

يتردد في الحروب الحديثة اسم الحرب الخاطفة على أنها ابتكره قواد عصرنا في أساليب الحرب ، واخترعوه في نظام القتال ، فتكون منقبة من مناقبهم ، ومفخرة لهم لم يسبقهم إليها أحد ، وليس هذا من الحق في شيء ، لأن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم هو الذي ابتكر هذا النظام في الحرب ، وابتدعه في قتاله لأعدائه ، فكان عنده سُنَّة متبعة في القتال ، وتقليدا يأخذ به في الهجوم على الأعداء ، لأن هذا النوع من الحرب لا يكون إلا في حالة الهجوم ، وهذا لأن أسلوبه يعتمد على المفاجأة ، ومداومة بلاد العدو في غفلة ، وإخفاء مقصد الجيش المهاجم حتى يصل إليه قبل أن يعلمه العدو ، والتهويل في قوته حتى يملأ الرعب منه كل نفس ، ويأخذ الخوف منه قلوب الأعداء .

وللحرب الخاطفة فائدتها في أن النصر يؤخذ فيها بأقل ثمن ، لأن العدو يؤخذ فيها قبل أن يستعد للقتال ، فيستولى عليه الدهش ، ويأخذه الرعب والخوف ، ويبادر إلى التسليم للجيش المهاجم ، فلا يكلفه عناء في القتال ، ولا تضحية في الجنود ، ولا يجعله يكسب النصر بالثمن الفادح ، من الدماء الغزيرة ، والأموال الكثيرة ، فلا يكون الفرح به خالصاً ، بل يكون مشوباً بالحزن على ما سال فيه من الدماء ، وما ضاع فيه من الأموال ، ومن فقد فيه من الأبطال .

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يؤثر هذا النوع من الحرب في حروبه ، لأن أصحابه كانوا في قلة ، ولم يكونوا بين أعدائهم إلا قطرة في بحر ، وقد اضطربهم أولئك الأعداء إلى حروب متواصلة ، فكان

النبي صلى الله عليه وسلم في حاجة إلى الاقتصاد في هذه الحروب ، لتقل فيها ضحايا المسلمين ، ولا يضعف أمرهم بكثرة من يقتل منهم .

فكان صلى الله عليه وسلم إذا أراد غزوة ورأى غيرها ، فيقول مثلاً إذا أراد غزوة حُنين : كيف طريق نجد ومياها ؟ ومن بها من العدو ؟ لأن طريق نجد غير طريق حنين ، فيضلل بهذا من يقصده بتلك الغزوة ، ليأخذه بها على غفلة ، وكان يقول «الحرب خدعة» .

وكان له عيون وأرصاد بين أعدائه ، وكانوا يأتونه بأخبارهم أولاً بأول ، فإذا بدرت منهم بادرة حرب كان خبرها عنده قبل أن يستعدوا لها ، فيفاجئهم بحربه قبل أن يستعدوا له ، ويضربهم ضربة سريعة قاتلة ، وكان يستحب القتال أول النهار ، فيأخذ أعداءه وهم لا يزالون في غفلتهم ، فإذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس ، وتهب الرياح ، فيأوى السكان إلى منازلهم ، ويأخذهم أيضاً في غفلتهم وسكونهم ، وتلك هي الحرب الخاطفة بعينها ، وتلك هي طرقها وأساليبها ، ولا غرو في أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم مبتدع هذا النوع من الحرب ، لأنه كان يجمع أنواع العظمة كلها في شخصه الكريم ، فكان الرسول الأعظم بين الرسل ، وكان القائد الأعظم بين القواد ، وكان البطل الأعظم بين الأبطال ، وكان المصلح الأعظم بين المصلحين ، وكان المشرع الأعظم بين المشرعين ، إلى غير هذا من نواحي العظمة التي بلغ فيها ذروتها ، ووصل فيها إلى ما لم يصل إليه عظيم قبله ولا بعده .

ومن أظهر الحرب الخاطفة في الحروب النبوية حرب الفتح الأعظم -- فتح مكة -- وقد كانت مكة موطن الكعبة ، وهي قبلة المسلمين ، وموضع تقديس العرب أجمعين ، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يستولي عليها بحرب خاطفة ، يباغت بها أهلها مباغتة ،

وياخذهم بها قبل أن يستعدوا له ، فيضطربهم إلى التسليم من غير حرب ،
ويحفظ بهذا دماء المسلمين الفاتحين ، كما يحفظ دماء قومه من أهل مكة ،
ليدخلوا بعد الفتح في الإسلام ، ويكونوا أكبر عون للمسلمين ، وهذا
إلى أنها بلد مقدس لا يحل سفك الدم فيها إلى بقدر الضرورة ، ولا
يصح أن تعرض أماكنها المقدسة إلى تخريب ونحوه .

فتجهز النبي صلى الله عليه وسلم للسفر إلى هذا الفتح ، ولم يخبر
أحداً بقصده إلا أبا بكر الصديق ، لأنه كان أميناً ومحل سره ، ثم
وضع حراساً على رؤوس الطرق الموصلة إلى مكة ، ليسألوا من يسافر
فيها عن مقصده وغايته ، وكان لأهل مكة جواسيس وأنصار في المدينة
من المنافقين ، فوضع الحراس على تلك الطرق حتى لا يمكن أحداً من
المنافقين أن ينقل خبر ذلك الاستعداد إلى أهل مكة ، فكانوا لا يأذنون
بالسفر في تلك الطرق إلا لمن يوثق فيه من المسلمين ، ويردون عنها
كل من يظن فيه أنه جاسوس ، وكان على رأس أولئك الحراس عمر
ابن الخطاب ، وهو معروف بشدته وبقظته ، فكان يتعهدهم وقتاً بعد
وقت ، ليقوموا بحراستهم على أكمل وجه .

ومع هذا أمكن جاسوسة أن تفلت من أولئك الحراس ، وهي
جارية لحاطب بن أبي بلتعة ، وكان مؤمناً مخلصاً في إيمانه ، ولكنه
كان له أهل ومال بمكة ، ولم يكن من صميم أهلها ، فأراد أن يتقرب
بهذا إليهم ليحافظوا على أهله وماله ، وكان قد كتب إليهم كتاباً يخبرهم
فيه باستعداد النبي صلى الله عليه وسلم للغزو ، وأنه ربما يقصدهم به ،
ثم أرسل جاريته بهذا الكتاب إليهم ، فعلم النبي صلى الله عليه وسلم
بأمرها ، وانتدب لها ثلاثة من كبار أصحابه ليلحقوها قبل أن تصل إلى
أهل مكة ، وهم علي بن أبي طالب والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود ،

فانطلقوا مسرعين حتى أدركوها بروضة خاخ ، وقاموا بتفتيشها حتى
عثروا على ذلك الكتاب في عقاصها ، فأخذوه منها ، ورجعوا به إلى
النبي صلى الله عليه وسلم . وبهذا تم تجهيز ذلك الجيش من غير أن يعلم
مقصده ، وكان عدده عشرة آلاف ، وهو أعظم جيش سار النبي صلى
الله عليه وسلم به للغزو ، وكان ذلك العدد العظيم من ضمن الوسائل التي
أراد أن يستولى بها على مكة في حرب خاطفة .

فسار النبي صلى الله عليه وسلم حتى وصل إلى مر الظهران ، وصار
قريبا من مكة ، فأراد أن يهول في أمر جيشه على أهلها ، ليلقي الرعب
في قلوبهم ، ويضيف وسيلة جديدة إلى الوسائل التي أراد بها تحقيق
تلك الحرب الخاطفة ، فأمر بإيقاد عشرة آلاف نار ، ليراها أهل مكة ،
فتلقى الرعب في قلوبهم ، وكانوا قد بلغهم أمر ذلك الجيش العظيم ،
ولكنهم لم يدروا الوجهة التي يريد بها ، فأرسلوا أبا سفيان بن حرب
وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يلتمسون خبر ذلك الجيش ، فلما
وصلوا إلى مر الظهران رأوا تلك النيران تسطع في الليل ، فهاهم
أمرها ، حتى قال أبو سفيان : ما هذا ؟ لكانها نيران عرفة ! فقال
بديل بن ورقاء : هي نيران بني عمرو . فقال أبو سفيان : بنو عمرو
أقل من ذلك .

وكان هناك حرس من المسلمين يطوفون حول الجيش ، حتى
لا يقصده أحد بسوء ، فعثروا في طوافهم بأبي سفيان وحكيم وبديل ،
فأخذوهم أسرى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان أبو سفيان زعيم
أهل مكة في حروبها مع المسلمين ، وكان أشد المشركين عداوة
للإسلام ، فلما رأى ذلك الجيش رأى أن أمرهم إلى انهزام ، وأن
النبي صلى الله عليه وسلم لم يصل إلى كل هذا إلا بتأييد إلهي ، فأمن به
وصدقه ، وترك ما كان عليه من الشرك الذي أصر عليه كل تلك المدة ،

ولا شك أن إسلامه فيه أكبر صدمة لقريش ، لأنه كان رئيسهم في السلم ، وقائدهم في الحرب ، فإسلامه في ذلك الوقت كان خسارة كبيرة عليهم ، وهذه كانت أولى ثمرات تلك الحرب الخاطفة .

وقد أوقف النبي صلى الله عليه وسلم أباسفيان عند خطم الجبل وجعل الجيش يمر عليه كتيبة كتيبة ، ليرى عظمته وقوته وحسن نظامه ، وينظر من اجتمع فيه من القبائل الكثيرة ، فإذا عاد إلى أهل مكة أخبرهم بما رأى من ذلك ، فيملأ الرعب قلوبهم ، ويرون أنه لا فائدة من الحرب ، فيبادرون إلى التسليم ، ولا يعمدون إلى المقاومة .

وكانت نتيجة ذلك كله موافقة لما قدره النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد قسم جيشه إلى قسمين : قسم بقي معه ليدخل مكة من أعلاها من كدّام ، وقسم جعله مع خالد بن الوليد ليدخل مكة من أسفلها من كُدّى ، فلم يشعر أهل مكة إلا وذلك الجيش يحيط بهم من كل جانب ، وأصوات الأمان تتجاوب من هنا ومن هناك : من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ولم يمكن أهل مكة إلا أن يجيبوا داعي الأمان ، فدخلوا دورهم ويغلقوها عليهم ، ويدخل بعضهم المسجد الحرام ، ويدخل بعضهم دار أبي سفيان ، ويتم بهذا فتح أكبر بلد في جزيرة العرب من غير أن يذهب فيه دم يذكر ، وما كان أحد يظن أن يتم فتحها بهذه السهولة ، بعد الحروب الطويلة التي وقعت بين المسلمين وقريش ، ولاكنها الحرب الخاطفة التي تسبب النصر بأقل ثمن . وفي أقل ما يمكن من الزمن .

تمت هذه الدراسات ، وستتبعها دراسات أخرى إن شاء الله تعالى ؟

فهرس

الصفحة	
٣	الخطبة
٦	الحضارات القديمة في القرآن
٢٤	هل ذو القرنين هو الاسكندر أو كورش
٣١	هل رجع بنو إسرائيل إلى مصر
٣٤	الفن القصصى في القرآن
٣٨	هل في القرآن أسلوب غير عربى
٤٠	الرواية الاسلامية في عدد أصحاب الكهف
٤٢	موسى عدى أو مصرى
٤٤	وأد البنات عند العرب
٤٨	الفنون الجميلة في القرآن
٥٣	تصحیح أسماء السور في مصحف أبى بن كعب
٦٤	الاسلام وحرية البحث
٩١	متى كان التحدى بالقرآن
١٠١	متى ابتدأت معارضات القرآن
١٠٦	معجزة مجهولة من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم
١١١	إسلام قريش عام الفتح بالاختيار لا بالسيف
١١٧	الوحدة الاسلامية
١٢١	أبو هريرة
١٢٦	براعة الجاسوسية الاسلامية في غزوة الأحزاب
١٣١	من أسرار غزوة بدر
١٣٦	استفتاء العلم في أول وحى
١٤٩	بين المرونة والنتطع في الدين في غزوة حنين
١٤٦	الشورى الاسلامية ونظام الحزبية
١٥٢	الرسول الفاتح
١٦١	دراسة تحليلية في أطوار حياة النبي صلى الله عليه وسلم
١٦٩	الحرب الحاطقة في الاسلام

تصحیحات

ص	ص	صواب	ص	ص	صواب
٦	٢	الحضارة والبداءة	٩٩	١٤	لأنهم
٥٠	١	الفنون	١٠٥	٧	خلقناكم من تراب
٦٧	١١	د ٢٧ د			ثم من نقطة
٧١	١٦	فاهبط منها	١١٤	١٩	صريحتان في أن
٨٧	١١	ليست	١١٨	١٩	السنة والشيعه
٩٥	١٧	نبأ	١٣٣	٢٠	أمكنهم منهم